الفصل الأول

التشبيه والتمثيل

في القرآن الكريم كثير من التشبيهات والتمثيلات الآسرة ، نجد القرآن يتخذ من هذا الفن التعبير وسيلة من وسائل الكشف والإيضاح ، والتهذيب والتربية ، والتبشير والإنذار ، والترغيب والترهيب ، والتزيين والتقبيح ، والقوة والضعف ، والهداية والضلال ، والتعظيم والتحقير ... إلى آخر هذه الأغراض .

والهدف الديني هو الطابع المسيطر على كل ما في القرآن من تشبيه وتمثيل.

ودراستنا لهذا الفن في القرآن تعتمد على تقسيم التشبيه والتمثيل فيه إلى مجموعات ، كل مجموعة تخدم غرضًا عامًّا موحدًا ـ وإن وُجِدَت بينها فروق وخصائص جزئية ـ وسنتبع هذه المجموعات بنظرة عامة نحاول من خلالها تسجيل ما تفرَّق فيها من ملاحظات وخصائص هي هدفنا من هذا الفصل .

● **مجموعات التشبيه والتمثيل في القرآن :**

وهذه المجموعات يمكن تلخيصها فيما يأتي :

أولاً : في شأن الكافرين ، وتحت هذه المجموعة أربعة أغراض

١- ضلال المعتقَد . ٢- ضعف المعتقَد .

٣- بطلان الأعمال . ٤- سوء المصير.

ثانيًا : في شأن المؤمنين ، وتحت هذه المجموعة غرضان رئيسيان تحت كل منهما صور مختلفة وسيأتي الحديث عنها مفصَّلاً ، وهما :

١- الترغيب : سواء أكان في عقيدة أو سلوك أو حسن مصير .

٢- الترهيب : سواء أكان من عقيدة ، أو سلوك ، أو سوء مصير .

ثالثًا : مظاهر القَدرة : وهذه المجموعة تنظم كثيرًا من الظواهر التي تدل على عِظَم قُدرة الله في السماء والأرض وما بينهما .

رابعًا : باقة من الزهور .

أولاً : في شأن الكافرين

١- ضلال المعتقد :

الكافرون والأنعام

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١) .

هذه صورة خلاصتها : ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق ، أو : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق ، والمعنى : ومثل داعيهم إلى الإيمان ـ في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ، ودوي الصوت ، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ـ كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئًا آخر ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون .

وقيل : معناه مثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم على باطل .

وقيل : معناه مثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع ، ولكن هذا التوجيه لا يساعد عليه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة:١٧١) ، لأن الأصنام لا تسمع شيئًا .

والوجه الأول هو الأظهر لأن المراد بيان أغراضهم عن دعوة الحق ، فسواء عندهم الإنذار وعدم الإنذار ، لأنهم في الضلال سادرون ، وقد آثر القرآن كلمة :

«ينعق» لما فيها من مناسبة للمعنى، والنعيق: التصويت، يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن، قال الأخطل:

فَانْعِقْ بِضَأنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا ... مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الخَلاءِ ضَلالا[1]

والقوم ـ هنا ـ مشبَّهون بالأنعام فهي تسمع الصوت دويًا ولا تميز ما فيه من معان وقيم مدعو إليها.

والقرآن كثيرًا ما يُشبِّه الكافرين ـ في الضلال ـ بـ «الأنعام»، بل هم أكثر منهم ضلالاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ (الأعراف:١٧٩).

وهذا التعبير من قبيل التمثيل المركَّب، شبَّه فيه هيئة إعراضهم عن دعوة الهدى بهيئة قطيع من الأغنام ينعق بها راعيها فلا تعي ولا تسمع، ووجه الشبه بين كل من الطرفين هو الضلال وسلب الإدراك.

● صورة ثانية ـ حالهم مع كل ما يجب فهمه:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩).

هذا تصوير ثان لبيان ضلالهم هدف التشبيه منه مثل الأول، والفرق بينهما أن التمثيل السابق ملحوظ فيه حالهم مع الداعي لهم إلى الحق، وهنا طوى ذلك الجانب مع تقديره بدلالة الالتزام، فخرج الكلام معه ـ أي التصوير الثاني ـ مخرج بيان حالهم مع كل ما يجب فهمه، ومع كل ما يجب رؤيته، ومع كل ما يجب سماعه.

في هذه الصورة خبر أو حكم هو: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري :جـ١، وتفسير أبي السعود ٢٢٥/١٠.

وهذا الخبر أو الحكم ذكرت بعده مبرراته : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (الأعراف:١٧٩) .

وهذه الصفات الثلاث مقتضية لذلك المصير ، ولكنها في نفس الوقت ممهدة لحكم آخر ، بل تكاد تدل عليه : ﴿ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

إنهم أشد ضلالاً من الأنعام ، لأنها تنقاد إلى أربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف مَن يحسن إليها ممن يسيئ إليها ، وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، لا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان لهم الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المصدر الهنيء والعذب الروي ، لذلك كانوا الكاملين في الغفلة[1] .

وجاء تشبيههم بالأنعام كذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الفرقان:٤٤).

● **صورة ثالثة ـ أكلهم كأكل الأنعام :**

كذلك شبَّه أكلهم بأكل الأنعام حتى تتم الصورة من كل الوجوه الممكنة فقال سبحانه : ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢).

أي يأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في المسارح والمعالف غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح»[2] .

والآن .. قد كملت الصورة التي رسمها القرآن من حيث تشبيه الكافرين بالأنعام حتى لا يكادوا يمتازون عنها إلا في الهيكل العام .

(١،٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٢٥٤ .

● صورة رابعة ـ الكافرون وسلب الإحساس :

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٤) .

وهذه صورة مقررة لما سبق ، شُبِّهَ فيها فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وقابل ذلك تشبيه المؤمنين بالبصير والسميع .

قال الزمخشري : « وهو من اللف والطباق ، وفيه معنيان : أن يشبه الفريق يشبهه اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب(١) ، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصم والذي جمع بين البصر والسمع ، على أن تكون الواو في « الأصم » و« السميع » لعطف الصفة على الصفة كقول الشاعر :

يَا لهفَ زبابةِ لِلْحَارِثِ الصابحِ فالغانمِ فالآيبِ(٢)

لكن الأولى إبقاء حرف العطف على أصله من عطف ذات على ذات فيكون التشبيه متعددًا ولا ضير في ذلك ، ولا حاجة إلى التخريج الذي ذكره الزمخشري فهو مجرد احتمال .

● صورة خامسة ـ قسوة قلوبهم وتحجرها :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٧٤) .

وفي هذه الصورة وصف لتحجر قلوبهم التي لا يفقهون بها ، شبَّهها في عدم تأثرها بالحق واستجابتها لداعي الهدى بالحجارة ، ووجه الشبه القسوة ، وهنا نلمح خاصة فريدة في تشبيه القرآن ، فقد سبق عندما شبَّه القوم بالأنعام في الضلال ، أنه ترقى في التشبيه ولم يرض مساواتهم بالأنعام فقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، وقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

---

(١) يريد قوله : كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٢/١ .

مع ملاحظة أن هذا الترقي في التشبيه مقترن بظواهر تعبيرية هي إذا ذكر نفي العقل عنهم، أو نفي الفقه، أو وردت كلمة القلوب، ففي «الأعراف» كان التعبير: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وفي «الفرقان»: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٤).

وكذلك في موضعنا هذا: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤).

فترقى في التشبيه هنا، كما ترقى في الموضعين السابقين، وليس هذا الترقي مبالغة مكذوبة، بل هو حقيقة واقعة فالحجارة أنواع: نوع يتفجر منه الأنهار، ونوع يشقق فيخرج منه الماء، ونوع يحس ويتأثر ويهبط من خشية الله.

وقلوب هؤلاء ذاهبة في التجمد والتحجر مذهبًا فقدت فيه وظائفها ففاقت الصخور في قساوتها وهي كتلة من لحم ودم.

ولبلوغ قلوبهم في القسوة درجة عظيمة عدل القرآن عن الإتيان بأفعل التفضيل من الفعل نفسه: فلم يقل: «أقسى» بل: ﴿ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، لأن هذا التعبير أوضح في دلالته على المراد هنا»[1].

● **صورة سادسة ـ الكافرون والظلمات:**

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٣٩/١، تفسير الكشاف للزمخشري: ١١٥/١.

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد:١٦،١٧).

وقفنا في التشبيهات السابقة على تشبيه الكافر في الضلال بالأعمى والأصم ، كما شبَّه المؤمن في الهداية بالبصير والسميع ، وهنا في هذه الصورة الجديدة طائفة من التشبيهات ..

منها تشبيه الكفر والضلال بالظلمات ، وتشبيه الإيمان والهدي بالنور .. والمتأمل يجد لهذه المعاني روعة ودقة انسجام .

ففي جانب الكافر : عمى وظلمات .. والأعمى لا يبصر فهو دائمًا في ظلام ، وفي جانب المؤمن : إبصار ونور ، والمبصر دائمًا في نور .

● **ومعنى آخر نلمحه :**

فقد استعار القرآن لفظ «الأعمى» للكافر .. ثم استعار لفظ «الظلمات» للكفر ، وهنا تتحدد الصلة الوثيقة بين الكفر والعمى ، وتتحدد كذلك شدة ضلال الكافر فهو أعمى في ظلام ، والعمى وحده حاجب لرؤيته شيئًا ، فكيف إذا كان هذا الأعمى في ظلام أنه أشد عرضة للهلاك حيث لا يتقي بنفسه الشر ، ولا يتقيه سواه لأنهم لا يرونه ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ (النور:٤٠) .. هكذا يقول القرآن .

والمؤمن بصير ، والإيمان نور ، وهنا كذلك تتحدد الصلة القوية بين الإبصار والنور بمعنى الإيمان .

وتتحدد كذلك درجة هداية المؤمن لأنه مبصر في نور : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۖ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٣٥) .. وهكذا يقول القرآن .

يقول إمام البيان عبد القاهر الجرجاني : «النور في القرآن مستعار للبيان والحُجَّة ، ويُستعار للعلم نفسه أيضًا وللإيمان ، وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشُّبهة والجهل والكفر ، وإذا استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبها

كمن يسعى في الظلمة فيذهب في غير الطريق وربما دفعَ إلى هلاك وتردى في أهوية»[1] .

والأعمى الذي يتخبط في الظلام يحكم على الأشياء أحكامًا خاطئة ، وكذلك حال الكافرين فقد سوَّل لهم ضلالهم أن يجعلوا لله ـ سبحانه ـ شركاء لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون .. ثم ضرب الله مثلاً لحقه . ومثلاً لباطلهم .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد:١٧) .

مثَّل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس ، فيحيون به وينفعهم جم المنافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي والأواني المختلفة ، وأن ذلك ماكث في الأرض ، باق ظاهرًا : الماء تبقى آثاره ، والجواهر تبقى أزمنة متطاولة .

ومثَّل الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله ، وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب[2] .

فالحق ثابت ، وهو كثير النفع ، والباطل زائل ليس له قرار ، ضَلَّ مَنْ تمسك به ، وكذلك يضرب الله الأمثال .

وضرب المثل : اعتماده وذكره ، وعبَّر عنه بـ «الضرب» لأن المثل له من التأثير القوي في النفوس مثل ما للضرب فيها من الإحساس[3] .

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ٤٦ (بتصرف) .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٦/٢ .

(٣) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ـ الدكتور عبد الغني الراجحي

● صورة سابعة ـ الكافرون والموت :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٢) .

هذه الصورة تحمل كثيراً من ملامح الصور المتقدمة ، فقد ضربت النور مثلاً للهداية ، كما ضربت الظلمات مثلاً للكفر والضلال ، ونفت أن يكون بين الفريقين شبه .

ضربت الموت مثلاً للكفر والضلال ، والحياة مثلاً للإيمان والهدى ، فالكافر الضال ميت .. والجامع بينهما عدم النفع ، والمؤمن حي .. والجامع بينهما الانتفاع بكل .

وقد روعي في جانب تشبيه الكافر ما روعي في جانب تشبيه المؤمن ، فقد قال سبحانه في تشبيه المؤمن : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ . فقوله : « يمشي به في الناس» ، زيادة تقرير وإيضاح .

وقال في جانب الكافر : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ فقوله : «ليس بخارج منها» زيادة تقرير وإيضاح ، لما روعيت هناك روعيت هنا ، فتعادلت كفتا الميزان .

● إجمال :

هذه مُثُل وتشبيهات بيَّن القرآن بها ضعف عقيدة الكفر ، وقد رأينا الكافر فيها أعمى مرة وأصم أخرى ، وميتًا ثالثة ، وكالأنعام بل هو أضل رابعة ، يعيش في عزلة عن المجتمع الإنساني الصالح كما تعيش البهائم ، يأكل مثل أكلها .. ويهيم على وجهه مثلها ، يسوم كما تسوم ، هي مصيرها أن تذبح لكنها غافلة ، وهو مصيره النار .

ثم تراه ـ بعد ـ متحجرًا ، بليد الإحساس وباطله الذي عليه زائل لا ينفع كرغاوي السيل وإفرازات المعادن إذا صُهرَت بالنار ، فما أضله وما أضل مسعاه ... ؟ ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠).

٢- ضعف المعتقد :

● مثله كمثل الكلب :

وقد صوَّر القرآن هذا الجانب في صورة مختلفة من التشبيه والتمثيل فها هو يمثل لهم حالهم بحال الكلب ، ذلك المخلوق الحقير ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الأعراف:١٧٥،١٧٦) .

مثله كمثل الكلب ..

أي صفته التي هي مثل الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها ، وهي حال دوام اللهث به واتصاله سواء حُمِلَ عليه ـ أي شُدَّ عليه وهيج وطُرِد ـ أو تُرِكَ غير معترَض له بشيء ، وهذا المثل يتضمن وصفهم بالحقارة والضعة .

● ومثلان آخران ـ رجلان لا يستويان :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:٧٥،٧٦) .

هذان المثلان ينفيان عن الأصنام ـ التي هي معتمد عقيدة الكفر ـ صفة الكسب فهم لا يقدرون على شيء .. أي شيء .

ويلاحَظ أنه عندما نفي عنها هذه الصفة المهمة ، فإنه يثبت لها صفة أخرى تتم بها الصورة ويتحقق الضعف في أجلى أوضاعه .

ففي المثل الأول حين نفى عن العبد قُدرته على شيء أثبت له الرق ، والرق نفسه عجز ، وقد مهَّد لهذه الصفة بذكر العبد مقدَّمًا عليها : ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ، وقارن صفته هذه المتناهية في الضعف بمن مَنَّ الله عليه بجلائل النِّعم من حرية تجعله حر التصرف محرر الإرادة ، ورزق حسن ينفقه على المحتاجين وهو لا يخاف مالكًا يحجر عليه ، فهو يُنفق منه سرًّا وجهرًا ، ثم ينفي المساواة بينهما من كل الوجوه ، وهل تستوي العبودية مع الحرية ، والعجز مع القُدرة ، والغنى مع الفقر ؟

وفي المثل الثاني .. حين نفى عن أحد الرجلين قُدرته على الكسب مطلقًا أثبت له صفة البكم ، ثم قارنَ بينه وبين مَنْ هو طلق اللسان يأمر بالمعروف وهو على صراط مستقيم .. ثم نفى أن يكون بين الرجلين شبه .

ويرى الزمخشري أن المقابل للمثلين في الموضعين : مثل مضروب لله تعالى ، فما كان في غاية العجز فهو الأصنام ، وما كان في غاية القوة فهو الله[1] .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩)[2] .

هذا المثل ضربه الله لمن يُثبت آلهة شتَّى ، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدَّعى كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ويبقى هو متحيرًا ضائعًا لا يدري أيهم يعبد ؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ . وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفده ، فهمُّه مشاع وقلبه أوزاع .

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق : ٤/٩٨ .

فهل يستوي حال هذا الحائر مع حال مَن يُثبت إلهًا واحدًا ، فهو قائم بما كلَّفه به ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه في عاجله وآجله[1] .

فههنا اضطراب وقلق وحيرة وتشتت ، وضعف وعجز ، وذلك مثل الكافر عقيدة ومعتمد عقيده .

● ومثال آخر ـ قياس من الواقع :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم:٢٨) .

هذا المثل مضروب لضعف الأصنام ، وقد ساق الله بهذا المثل قياسًا لا ينكرونه ، لأنه مضروب لهم من أنفسهم ، وحاصله :

قاس حال الأصنام مع خالقها وخالق مادتها ، بحال المملوكين مع مالكيهم ، وهم هنا المخاطَبون ، فالله يقول لهم : هل لكم ممن تملكون من الأرقاء شركاء فيما رزقناكم وملكته أيمانكم ، فأنتم وهم متساوون الملكية والتصرف فيه ، وإذا تصرفتم في شيء منه دون إذنهم خفتم من مساءلتهم لكم على هذا التصرف كما يخاف بعضكم بعضًا ـ معاشر الأحرار ـ إذا تصرف واحد منكم فيما يملكه غيره ؟

هم لا شك منكرون أن يكون هذا حالهم مع حال مملوكيهم ، وإذا تقرر ذلك فكيف يثبتون لله ـ سبحانه ـ شركاء فيما خلق ؟

وهذا المثل محتوٍ على تشبيه ضمني شُبِّه فيه هيئة بهيئة ، وهم معه أحد رجلين : إما أن ينكروا أن يكون لمملوكيهم هذا الحق ، فيلزمهم نفيه عن الأصنام وتبطل قضية التعدد المزعومة .

وإما ألا ينكروا ـ وهذا مستبعد ـ فيكونوا متناقضين مع الواقع ومع أنفسهم،

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٩٨ .

والأصنام ـ هنا ـ أيضًا ضعيفة كالمملوك مع المالك ، بل هي أشد ضعفًا لأنها لا تملك حياة ولا موتًا ولا نشورًا .

● وصورة أخرى ـ الذباب هو المنتصر :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣) .

بلغت الأصنام في هذا المثل حالة من الضعف المزري ليس وراءها زيادة فهم ـ أي الذين يدعونهم من دون الله « لن يخلقوا ذبابًا » والذباب مخلوق حقير وضيع لن يخلقوه مجتمعين ، فأولَى متفرقين ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، ـ إذن لهان الخطب ـ ولكن هذا المخلوق الحقير « الذباب » لو استلبهم شيئًا عجزوا عن استنقاذه منه : ضعف الطالب الذي هو الأصنام ، وضعف المطلوب الذي هو الذباب .

وهذه الصورة وإن لم تأت على طريق التشبيه في الظاهر ، فهي متضمنة له في المعنى ، يقول صاحب الكشاف : « قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب » مثلاً تشبيهًا لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم »[1] .

● بَلَهٌ مضحك :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (الرعد:١٤) .

العابد يرفع حاجاته إلى معبوده راجيًا منه العطاء ، والكافرون مخدوعون إذا رجوا من أصنامهم خيرًا ، فهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون شيئًا ، ولا هم يملكون شيئًا فيعطوه لهم .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٣٤/٣ .

هذه حقيقة .. فكيف أخرجها القرآن ؟

﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ (الرعد:١٤) .. نفى أن يستجيبوا لهم بشيء .. فأقنطهم ، ثم ذكر أداة الاستثناء ، ومن شأن المستثنَى أن يكون مغايرًا للمستثنى منه فقال : ﴿ إِلَّا ﴾ .. فتعلقت آمالهم بالآلهة من جديد ، وانتظروا فكان المستثنَى أوقع في اليأس من المستثنَى منه .. ﴿ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ .

صورة مرسومة بالألفاظ المشعة ـ ليست ذات ألوان ـ ولكنها فاقت ما يُرسم بالألوان : رجل منحن على سطح ماء مصاب بعجز يمنع يده أن تغترف منه ، وهو ظامئ يكاد يقتله العطش ، ولكنه في بلاهة يبسط يده إلى الماء راجيًا أن يصعد إلى كفيه ليرتوي ، فلا الماء صاعد ولا هو مرتو مع قرب الماء وشدة الحاجة إليه .

وفي التشبيه لون بديعي هو تأكيد الذم بما يشبه المدح ، فما أضعف ما يطلبون منه العون ، وما أشد عذابهم وآلامهم .

فالضعف شامل لآلهتهم ولهم أنفسهم .

وهناك صورتان أخريان يمثل القرآن الكريم فيهما كيفية مواجهة هؤلاء الكفار لعظائم الأمور[1] :

● هلع قاتل :

أما إحداهما فقوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب:١٩) .

---

(١) المراد بالكفار هنا ما يشملهم ويشمل المنافقين .

وأما ثانيتهما فقوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٠) .

فهم عند الخوف رعاديد تضطرب نفوسهم اضطرابًا يظهر أثره على العيون ، فتدور في مكانها ، لقد بلغ الخوف مداه ، حتى إن حالهم هذه تشبه حال المحتضر عندما يأتيه الخطر من كل مكان ، ويستسلم بكل ما فيه من ضعف للقدر المحتوم بكل ما فيه من قوة باطشة وسلطان عظيم ـ فليست هناك حالة معروفة للخوف أفزع من حالة المحتضر ـ لذلك لم يرض القرآن لهم مثلاً في ضعفهم وجبنهم ، إلا أن يمثل لهم بتلك الحال التي لا يجهلها أحد .

هكذا يُسهم التشبيه والتمثيل مع شقيقهما المجاز ـ كما سنرى ـ في رسم صورة صادقة لضعف الكفر في نفسه من حيث الأصنام التي كانوا يعبدونها ، ومن حيث الكافر نفسه فليسوا هم على شيء من دين ، وما هم بدافعي عن أنفسهم ضرًا يُراد بهم ، ولا أصنامهم وآلهتهم بمحققي آمالهم ، وإن عاداهم أحقر المخلوقات ـ كالذباب ـ لم يستطيعوا مصاولته .

● وضعف بالغ :

وهذه آية نختم بها هذه الجولة .. جولة القرآن مشبهًا وممثلاً لضعف معتقد الكافرين في كل مظهر من مظاهره : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١).

هذا مثلهم في اعتمادهم على آلهتهم : مثل رجل أوى إلى بيت العنكبوت ليحميه من خطر متوقع ، وإنهم ليعلمون ما هو بيت العنكبوت ؟ خيوط واهنة لو مَرَّ عليها نسيم هادئ لخرقها ومزقها : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والقرآن ـ كما نرى ـ إنما خاطبهم بما يحسون ويشاهدون في حديث واضح وضوح الشمس لعلهم يتذكرون .

٣- بطلان الأعمال :

كما تحدَّث القرآن عن ضلال معتقد الكافرين ، وعن ضعف آلهتهم وعن ضعفهم في أنفسهم ، تحدَّث عن بطلان أعمالهم التي يقدمونها ويحسبون أنها نافعة لهم .

● صورة أولى ـ صفوان ووابل :

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ ... كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٦٤).

الصفوان : الحجر الأملس ، والوابل : المطر العظيم ، والصلد : الآجر النقي .. والآية تمثل أعمال الكافرين الصالحة ـ بحسب الظاهر ـ كصلة القُربَى والعطف على الفقراء وإغاثة الملهوف .

وهذا المثل صورة أدبية مستوفية العناصر والأركان ، موفية بالغرض أحكم وفاء ، هي تشبيه تمثيلي مُثِّلت فيه أعمال الكافرين بتراب منثور على حجر من الصوان الأملس ، فهطلت عليه الأمطار فحملته وذهبت به كل مذهب فلم يبق منه فوق الحجر شيء .

التشبيه تمثيلي مركب ـ كما سبق ـ شُبِّهت فيه هيئة بأخرى ، ويجوز أن يكون من قبيل المفرد ..

فيُراد بـ «الصفوان» : الكفر والرياء ـ إشارة إلى عقم الكفر والرياء ـ شبَّه كل منهما بالصفوان الذي لا ينبت ولا يمسك ماءً .

ويُراد بـ «التراب المنثور فوق الصفوان» ـ خاصة : عمل الكافرين ، لا مطلق تراب ، فالقيد لازم ، لأن مطلق تراب مظنة الإنبات ، وليست كذلك أعمال الكافرين .

ويراد بـ «الوابل» : الإسلام لأنه حكم ببطلان الكفر وما يصدر عنه من عمل .

وإذا قارنا بين «الصفوان» الذي هو الكفر والنفاق ، و«الوابل» الذي هو الإسلام أدركنا الفرق واضحًا بين العقيم الماحل ، والمثمر النضير .

ولهذا نظائر ...

فقد شبَّه الله قلوب الكافرين بالحجارة في القسوة فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة:٧٤) .

كما شبَّه أعمالهم بالرماد ـ وسيأتي ـ فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ (إبراهيم:١٨) .

والرماد قريب من التراب ، أما تشبيه الإسلام بالوابل فمنه تشبيهه بالصَّيِّب ـ على رأي ـ في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (البقرة:١٩) .

● وصورة أخرى ـ ريح ورماد :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

(إبراهيم:١٨) .

كانت أعمال الكافرين في المثل السابق : ترابًا منثورًا على سطح وفي جوانب حجر أملس .

وهي ـ هنا ـ «رماد محترق» لا تتعلق به آمال ، وحتى مع هذا الوضع الحقير لأعمالهم : «رماد» لم يقر له قرار ، فقد اشتدت به الريح وهذا كاف لتبديده وتطييره .

ولكن زيادة في تقنيطهم ومحو أي أثر لأعمالهم أضيفت إلى ما سبق أمور يكاد معها عمل الكافر يكون عدمًا ، وتلك الأمور هي : ﴿ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ـ ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ـ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ .

فاشتداد الريح كان في يوم عاصف ، وإسناد العصف إلى ضمير اليوم ، مع أن الأصل : معصوف فيه ، مبالغة في شدة العصف ، وهو مجاز عقلي علاقته الزمانية .

وأنهم في هذا اليوم ، لا يقدرون على الانتفاع بكسبهم أو شيء منه ، فقد ضلُّوا ضلالاً بعيدًا .

كما نلاحظ وصف الضلال بـ « البعيد » ، ولم يقل : المبين ـ مثلاً ، ولعل السر في هذا التعبير أن الريح لما طيَّرت الرماد المضروب مثلاً لأعمالهم ، واشتد عصفها به في يوم اشتد عصفه ، المعنى إذن : أن الريح طيَّرت الرماد إلى مسافات نائية جدًّا لو تعقبوها في تلك المسافات لوقعوا في حيرة وضلال بعيد ، والمسافات ـ كما نعلم ـ يناسبها البُعد الذي جُعِلَ الوصف منه وصفًا لضلالهم في هذا المكان .

● وصورة أخرى ـ ريح وصِرّ :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١١٧) .

وخلاصة هذه الصورة : أن مثل إنفاقهم كمثل حرث أهلكته ريح فيها برد فلم يبق منه شيء ، والتشبيه ـ هنا ـ تمثيلي مركَّب ، فمن حق الأداة فيه أن تدخل على أي جزء من أجزائه لا على أنه المشبَّه به ، بل مجموع الأجزاء أو الصورة هي المشبَّه بها ، فلماذا ـ إذن ـ أوثر دخول الأداة على « الريح » ، فلم تدخل ـ مثلاً ـ على « الحرث » ، وهو صالح لدخولها عليه ، بل أولى لأنه في الحقيقة أقرب ما يكون مشبَّهًا به ؟

لذلك أرى أن في دخول الأداة على : ﴿ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ إشعارًا بأن أعمالهم شبيهة بالريح في عدم استقرارها وثباتها ، هذا معنى يلحظه الحس من مجرد دخول الأداة على « ريح » قبل أن تحكم المعنى مصطلحات الفن ، وقواعد أهل البيان .

وقد بولغ في وصف الريح بالبرودة فجرد[1] منها صفتها فقال : ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ ولم يقل : ريح باردة ، فكأن البرودة عامل آخر مستقل خارج عن الريح ، لأن ذلك هو مؤدى التجريد .

قال صاحب الكشاف : « المراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه وذهابه بالكلية ، من غير أن يعود عليهم نفع ما ، بحرث قوم كفار ضربته صر فاستأصلته ، ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركَّب »[2] .

وقد بيَّن الله في غضون هذا المثل أن ما حاق بهم كانوا هم سببًا فيه .. وذلك في موضعين : ﴿ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .. فذكر ظلمهم لأنفسهم ونفى أن يكون الله ظالمًا لهم .

● وصورة أخرى ـ سراب وظلمات :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠) .

شُبِّهت أعمال الكافرين في هاتين الآيتين بصورتين :

الصورة الأولى : شُبِّهت فيها بالسراب الذي يراه الناظر ، فيحسبه ماءً ، لأنه كالماء يبدو من بعيد .

فإذا علَّق عليه الآمال وأراد أن يروي ظمأه فأقبل مسرعًا إليه لم يجده شيئًا ، وليت الأمر يقف عند خيبة الرجاء هذه ، بل إنه بعد أن تنكشف له حقيقة السراب الذي خدعه فأقدمه إلى حيث هو واقف الآن ، أسلمه إلى مواطن الهلاك والضياع ، كأن أسدًا في انتظاره فيفترسه .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١/٤٠٤ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٥١ وما بعدها .

وكذلك الكافر يقدم نحو عمله راجيًا أن ينفعه فلا يجده شيئًا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه وأدخله النار ، ولقى هلاك أمثاله في مقام كان يتوقع منه النجاة !

وإذا كان عملهم سببًا في إهلاكهم فما أحرى أن يسمى ظلمات ، وهذا المعنى تكفلت به الآية الثانية : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ (النور: ٤٠).

صورة مخيفة ...

البحر وحده خطر على مَن يركبه ، فما بالك إذا كان هذا البحر ملفوفًا بالظلمات من كل جانب ، وهذه الظلمات لا سبيل إلى الخلاص منها ، والبحر هائج ثائر ، الموج فيه طبقات بعضها فوق بعض ، وفوق الموج سحاب يملأ الأفق ويسد منافذ الضوء .

وفي مطلع الآية الأولى نجد التعبير : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ ﴾ (النور: ٣٩) .

وقبلها وجدنا التعبير : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨)

وكان حق التعبير أن يقال في الموضعين : « ومثل أعمال الذين كفروا كرماد » ، و« وأعمال الذين كفروا كسراب » .

لكن القرآن خالف هذا النسق ، وجعل المثل في الأولى : مثل الذين كفروا ، ثم أبدل منهم أعمالهم بدل اشتمال .

كما أبدل نفس الأعمال من الذين كفروا في الآية الثانية ، فما السر إذن في هذا التعبير ؟

إن السر ـ فيما يظهر ـ واضح ، لأن الناس جميعًا يوم القيامة مجرَّدون من جميع الاعتبارات إلا اعتبار العمل صالحًا كان أو غير صالح .

ففي تصديرهم وإبدال أعمالهم منهم إشعار بهذا المعنى ، فالإنسان يقاس بعمله فحسب لا بماله ، ولا ولده ، ولا جاهه ، ولا سلطانه ، فمثل عمل الإنسان مثل للإنسان نفسه .

● وصورة أخرى ـ هباء منثور :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) .

فههنا تشبيه مؤكد حيث حُذِفت أداته ، ويُلاحَظ أنه لم يجعله « هباءً» حتى جعله « منثورًا» مفيدًا بذلك ذهاب عملهم من الأساس .

قال الزمخشري : « مُثِّلت حال هؤلاء القوم وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف .. بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها شر ممزق ، ولم يترك لها أثرًا ولا اعتبارًا ، وشبَّه عملهم بالهباء في قلته وحقارته وعدم جدواه ، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظمًا مع الضوء ، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر كل مذهب»[1].

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٩) .

٤- سوء المصير :

الضلال في المعتقد يؤدي إلى ضعف الموقف الذي يتخذه صاحب العقيدة ، وهذا يسلمه إلى بطلان السلوك الذي يبنيه عليه ، وبطلان السلوك أو الأعمال يؤدي به في النهاية إلى سوء المصير .

وعلى هذا النسق كانت تشبيهات القرآن وتمثيله في جانب الكافرين ، فأنت ترى سوء المصير واضحًا في الصور الآتية :

● صورة أولى ـ ترهقهم ذِلَّة :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : جـ ٣ .

عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (يونس:٢٧).

هنا وجوه أرهقها الذل فأظلمت كأنها مغشاة بقطع من ليل اشتد ظلامه وليس لهم من عذاب الله من عاصم .

● صورة ثانية ـ تَرَدٍّ مهلك :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١).

المشرك بالله فاقد كل سند يعتمد عليه في حياته الأولى والثانية ، وهو صائر بلا محالة إلى أسوأ ألوان الهلاك .

والآية ترسم لنا خطوط هذه النهاية المؤلمة .. إنسان هوى من السماء ـ من السماء هكذا ـ هوى ساقطًا على الأرض ، وهنا يفتقر الطريق شُعبتين كل واحدة منهما تؤدي إلى خطر ما حق ..

﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ لقد تمزق هو ـ إذن ـ قبل أن يصل إلى الأرض ، لأن المسافة بين الأرض والسماء بعيدة بعيدة ، لذلك فإن الطير تتوزعه في حواصلها فيصير غذاءً لها وقد هلك وتمزق شر ممزق .. هذه شُعبة .

﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ تهوى به تسير سيرًا سريعًا ، إلى أين؟ إلى مكان سحيق سحيق .. وهنا تكمن بواعث الخوف والرهبة فالمكان ـ هنا ـ منكَّر ، لأنه مكان غير معروف ـ وهذا هو سر الرهبة والخوف .

وقد آثر القرآن كلمة « خَرَّ» بدل : سقط ، ليشترك جرس اللفظ في الدلالة على المعنى مع المعنى نفسه ، فالساقط من عَلٍ يشق الهواء بجسمه فتسمع لهويه صوتًا يشبه خرير الماء ، ويحدث هذا في الأجسام الساقطة من مسافات عالية بدرجة ملحوظة .

وهذا التشبيه محتمل عندهم ـ علماء البلاغة ـ التركيب والإفراد ، وأمر التركيب فيه ظاهر ، أما الإفراد فقد خرَّجوه على النحو الآتي :

أن يُشبِّه الإيمان في علوه بـ «السماء» ، والذي أشرك بالله وترك الإيمان بـ«الخار من السماء» ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بـ «الطير المختطفة» .. والشيطان الذي يضله بـ «الريح» التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المهلكة»[1].

وجمال الصورة التي رسمها القرآن ـ هنا ـ وفي كل موضع مماثل لا يتوقف على اعتبار التركيب أو الإفراد ، فهو أمر ثابت محسوس ، وإن كنت أرى أن التركيب في مثل هذه الصورة أولى من الإفراد ، لأنه لا يخلو ـ أحيانًا ـ من التكلف في التخريج وقد يكون ليس مقصودًا لله .

● **وتصعَّد منهك :**

وصورة أخرى مقابلة للسابقة : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٥) .

هذا مثل مَن آثر الكفر على الإيمان ، تتسلمه الأوهام الضالة ، ويغتاله الشيطان بوساوسه فيضيق صدره وتختنق أنفاسه ، ويصبح أمره عسرًا ، كأنما يصعَّد في السماء وهو ضارب بقدميه على الأرض ، لأن صعوده في السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة[2] .

قال الراغب : «والصعد والصعيد والصعود واحد ، لكن الصعود والصعد يقال للعقبة ، ويُستعار لكل شيء شاق ـ قال ـ : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن:١٧) ، وقال : ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ (المدثر:١٧)

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣/٢١٧ .

(٢) المرجع السابق : ٢/٥٠ .

أي : عقبة شاقة[1] ولا يبعد أن يكون هذا التجاذب إلى أعلى مرة ثم إلى أسفل أخرى دليلاً على قلق الكافر وتنازع أفكاره بين مهاوي الضلال والفتنة ، ونسمات الهدى والإيمان .

● **وصورة رابعة ـ صيحات وصواعق :**

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ (القمر:٣١) .

هذه عاقبة قوم ضلُّوا أخذتهم الصيحة فهلكوا ، فصوَّر لنا القرآن صيرورتهم بعد هلاكهم بأنهم كانوا مثل « هشيم المحتظر » . هكذا ..

ومادة « هشم » تدور حول تكسر المادة وصيرورتها أجزاء[2] ـ وهذا كافٍ في هلاكهم ـ ولكنه يصف الهشيم بأنه « هشيم المحتظر »، وهذا يفيدنا معنيين :

أن الكوارث حلَّت بهم جميعًا فتساقطوا بعضهم فوق بعض ، هكذا يكون الهشيم في الحظيرة .

وأنهم أصبحوا وقودًا للنار تسرع فيه إذا أشعلت لأن « هشيم المحتظر » أكثر جفافًا من الهشيم الأخضر .

ومعنى آخر نلحظه : هو أن الهشيم يصبح قليل القيمة ، أو هباءً تذروه الرياح كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾

(الكهف:٤٥) .

وصورة مماثلة : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

(هود:٦٧،٦٨) .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤٣ .

وأخرى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (هود:٩٤،٩٥) .

وأخرى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ (المؤمنون:٤١) .

هذه ثلاث صور قريبة فيما بينها إذ تشترك الثلاث في أن الصيحة هي آخذة الذين كفروا .. وهذا إسناد مجازي علاقته السببية ، لأن الآخذ الحقيقي هو الله .

وعقب كل مرة تأخذهم فيها الصيحة يصبحون جاثمين لا حراك لهم ، ويصيرون بعد هلاكهم كأنهم لم يسبق لهم وجود في الحياة ، استؤصلوا من جذورهم ، فقد شبَّه وجودهم بالعدم لانعدام آثارهم ، يقال : غنى بالمكان ـ أي أقام به ـ يعني : « كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين »[1] .

وفي الصورة الثالثة جاء تشبيههم بـ « الغثاء » .. والغثاء يُضرب به المثل في الضياع[2]، ومصداق هذا في قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ (الأعلى:٤،٥) .

وصورة أخرى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت:١٣) .

لقد أهلك الله عادًا وثمود فأصبح هلاكهم أمرًا مشهورًا وأصلاً يُقاس عليه ، لذلك أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يُخوِّف أهل مكة إذا استمروا في إعراضهم أن يرسل الله عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فيحل عليهم عذاب بئيس.

صورتان أخريان : لقد شبَّه القرآن الكافرين حين أخذهم الله بعقابه العاجل بأنهم « أعجاز نخل » ، وذلك في موضعين :

أحدهما قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٧) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٣٢/٢ .

(٢) مفردات القرآن الراغب الأصفهاني ص ٣٦٧ .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (القمر:٢٠) .

فتشبيههم بأعجاز النخل دون غيرها من الأطراف للإشعار بأنهم أبيدوا من أصلهم فلم تبق لهم باقية ، وقد حرص القرآن في الموضعين أن يصف الأعجاز بوصف متمم للصورة .

فالأعجاز « خاوية » في آية الحاقة ، والنخل « منقعر » في آية القمر ، ولك أن تسمي هذا من باب تحقيق التشبيه ، كقول الشاعر :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

وذلك لأن أعجاز النخل قد تكون لها قوة إذا لم تكن خاوية ، وإذا لم يكن النخل منقعراً .

● مآل الكافرين :

وقد آثر القرآن وضع كل كلمة في مكانها لأنها تؤدي المعنى مع موافقة رؤوس الآي .

ومما يتصل بسوء مصيرهم حديث القرآن عن مآلهم وطعامهم وشرابهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ (الدخان:٤٣-٤٦) .

في هذه الآيات يُشبِّه الله طعام الأثيم بـ « المُهْلِ » ، والمُهْل : دردي الزيت ، وهذا تشبيه له باعتبار الذات ، ثم وصفه بأنه : « يغلي في البطون » ، ثم شبَّه غليه بـ « غلي الحميم » ، والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة .

وقد ورد الحميم في شأن أصحاب النار كثيراً : ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا ﴾ (محمد:١٥) ، و﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (النبأ:٢٥) ، و﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (يونس:٤) ، و﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ (الحج:١٩)، و﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (الصافات:٦٧) ، و﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (ص:٥٧) .

ويطلق الحميم على العَرَق المتصبب ، فبئس قوم هذا طعامهم .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٢٩) .

المستغيث : طالب الغوث ، ومن سوء مصير أهل النار أنهم طلبوا النجاة منها فأجيبوا بما يزيدهم حسرة وندامة .. أجيبوا بماء كدردي الزيت حار ساخن يشوي وجوههم ، وما هم بخارجين من النار .

ففي «يُغَاثوا» استعارة تهكمية مثل : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وهذا أنسب للمعنى من جعله من باب المشكلة اللفظية .

● **وصورة ثانية :**

علمنا أن «الزقُّوم» هي طعام الأثيم ، فكيف صورَّها القرآن إذن ؟

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات:٦٥) .

يا للهول .. حتى شكل الطعام مخيف ، ومذاقه علقم ، فيالسوء المنقلب ، وإذا كان هذا طعامهم ، شربوا عليه «شرب الهيم» والهيم : الإبل تصاب بداء تشرب منه فلا تروى ، فشبهوا بها أحط تشبيه[1] .

قال ذو الرمة :

فَأَصْبَحْتُ كَالهَيْمَاءِ لا المَاءُ مُبْرِدُ صَدَاهَا وَلا يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا

أي : أصبح كالإبل المريضة تشرب فلا تروى ، وتتعذب فلا تموت وتستريح .. وبدهي أننا لم نتناول هذه الجوانب الأربعة ، إلا ما جاء منها في أسلوب التشبيه والتمثيل ، وإلا ففي القرآن الكريم كثير من المواضع أفاضت في الحديث عنها ، ولم تدخل في اعتبارنا بحسب المنهج الذي اتبعناه .

● **وقفة جامعة :**

وفيما قدَّمناه من نماذج رسم القرآن عن طريق التشبيه والتمثيل صورة واضحة لهذا الفريق من الناس ، صورة كاملة الملامح واضحة العبارة آسرة البيان .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : جـ ٤ .

ونماذج كل مجموعة من المجموعات الأربع السابقة يقوى بعضها بعضًا في دقة وإحكام ، وتكاد ملامح نماذج المجموعة الواحدة منها تتشابه منها وتتأصر حتى إنك لتستطيع أن تصوغ عنها صورة واحدة لها خصائص ومميزات .

خذ ـ مثلاً ـ ظاهرة بطلان أعمالهم ، حتى النهاية واحدة في كل نموذج من نماذجها وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني لا ينكره منصف .

وفي كل الصور التي ذكرناها يخاطب القرآن كل القُوَى المدركة في الإنسان، العقل بما له من سلطان ، والعواطف بما لها من تأثرات ، والحواس على اختلاف ما بينها من طبائع ... والنفس والوجدان .

ولهذا كانت تشبيهات القرآن وتمثيله صورًا حيَّة لا تتأثر بتقادم دهر ولا يسمو فوقها بيان .

ولنعرض ـ بعد ـ لتشبيهات القرآن وتمثيله في شأن المؤمنين حسب الخطة.

ثانيًا : في شأن المؤمنين

(١) في مجالات الترغيب وردت الصورة الآتية :

١- مضاعفة الأعمال :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة: ٢٦١).

الغرض من التمثيل ترغيب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله ، وهذا عمل محمود .

لذلك نرى المثل يضع أمام المنفقين في سبيل الله كل وسائل الترغيب والإغراء المحمود .

فوحدة المال المنفَق ـ درهمًا أو دينارًا ـ كحبَّة وُضِعتَ في الأرض .. ثم أنبتت سبع سنابل ، السنبلة الواحدة تحمل مائة حبة ، فيكون مجموع ما ينتج عن الحبَّة الواحدة سبعمائة حبَّة ، وهذا حد أدنى يحصل عليه المنفقون .

٢- مقاييس البِّر :

وأعمال البِّر لها مقاييس تزكوا بها ، كشدة الحاجة عند المنفق لما بذل من مال .. قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر:٩) .

وقال : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران:٩٢) .. أي لن تناولوا كمال البِّر .

وقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ (الإنسان:٨) - في رأي مَن يقول على حُبِّ الطعام .

أو شدة الحاجة عند المنفق إليه ، فإن حاجات المحتاجين تتفاوت .

قال تعالى:﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد:١٤-١٦) .

وكالإخلاص في الإنفاق .. هذه الاعتبارات تضاعف الجزاء أضعافًا كثيرة ، ولذلك ترقَّى المثل في درجات الجزاء فقال : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١) .. فباب الزيادة في هذا الجزاء مفتوح ، ولن يقف عند حد السبعمائة المذكورة .

قال الزمخشري : « هذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر ، ولا يقدح فيه أن الممثَّل به غير موجود في الواقع ، لأن التمثيل على سبيل الفرض ، والتقدير » .

٣- وصورة أخرى « مثل للتكثير » :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٦٥) [١] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٢٤١ .

«الجنَّة» : البستان ، و«الربَوة» : المكان المرتفع ، و«الوابل» : المطر العظيم ، و«الطل» : المطر القليل .

وخصَّها بالذكر ـ أي خصّ هذه الجنَّة التي هذه صفتها ـ لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرًا وقليل الماء يكفي لإروائها ككثرته لكرم منبتها وخصوبة تربتها ، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر سواء أكانت الأموال المنفَقة كثيرة كالوابل ، أو قليلة كالطل ..

قال الزمخشري : «مثل حالهم عند الله بالحبَّة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكلتاهما زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده» .

٤- الترغيب في الجهاد :

المثلان السابقان يهدفان إلى الترغيب في الإنفاق في سبيل الله ، وهناك مثل آخر يُرغِّب في الجهاد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤) .

فقد شبَّه المقاتلين في سبيله في تماسكهم وقوة إيمانهم وصلابتهم للعدو وتصديهم له بالبنيان الذي رُصَّ بعضه إلى بعض ورُصِف[١] .

وقد وصف المشبَّه به «بنيان» بقوله تعالى : ﴿ مَّرْصُوصٌ﴾ أي قائم ، ولولا هذا الوصف لما جاء التشبيه بهذه المنزلة من الدقة والقوة ، لأن البنيان قد يكون ـ إذا لم يوصف بوصف يفيد الاحتراس «آيلاً للسقوط» أو ساقطًا ، فجاء الوصف في الآية الكريمة مانعًا لإرادة شيء من هذا ، مفيدًا لقوة البنيان ، وشدة تماسكه .

قال الراغب : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي : محكم كأنما بنى بالرصاص»[٢].

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٤١٨/٤ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٩٦ .

٥- الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

وقال تعالى مُرغِّبًا في الكلمة الطيبة ومُحذِّرًا من الخبيثة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦).

ههنا شجرتان .. إحداهما ضُربت مثلاً للكلمة الطيبة - أيُّ كلمة طيبة[1] وهذه الشجرة قد تهيأت لها أسباب النمو والرواء فالتربة خصبة والسقي منتظم، لذلك ضربت جذورها في أرضها الطاهرة فنمت أصولها وطالت فروعها حتى كادت تلامس السماء، ودام ثمرها فهي تؤتيه - بإذن ربها - كل حين .

والثانية أبيدت بمجرد ظهورها فوق الأرض فلم تنم ولم تضرب جذورها في الأرض .. وشتَّان بين هاتين الشجرتين .

والأولى حمل الكلمة الطيبة على جنس الكلام الطيب، والكلمة الخبيثة على جنس الكلام الخبيث لا أن تخص الأولى بكلمة التوحيد، والثانية بكلمة الكفر، ولا مانع أن تكون كلمة التوحيد أصلاً في الكلمة الطيبة، وكلمة الكفر أصلاً في كل كلام خبيث .

والتشبيه في الصورتين تشبيه مفرد - وهو «الكلمة الطيبة» في الأولى، و«الكلمة الخبيثة» في الثانية - بمركب، وهذا ظاهر .

ووجه الشبه في الأولى ما يترتب على كُلٍّ من الآثار النافعة، والمنافع الجمَّة .

أما في الثانية فالوجه عدم ترتب آثار نافعة في كُلٍّ، وإن كان أثر الكلمة الخبيثة هو إدخال قائلها النار .

---

(١) يرى بعض المفسرين تخصيص الكلمة الطيبة : بالتوحيد - والخبيثة : بالكفر . انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٤٢٠ .

ويتصل بمبدأ الترغيب أمور هي :

١- المدح والثناء .　　٢- وصف النساء والحور والولدان .

٣- وصف الجنَّة .

ونورد أمثلة ذلك من التشبيه والتمثيل القرآني على نفس الترتيب المذكور.

١- المدح والثناء :

ويأتي في مقدمة هذا الجانب مدح القرآن للرسول وأصحابه ، قال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:٢٩) .

إنها لصورة غنية عن كل شرح ، ومثل واضح لا يحتاج إلى بيان ، فالزرع يخرج غضًّا طريًّا ، وهكذا كان الإسلام متمثلاً في محمد عليه السلام ، ثم يخرج شطأه فيقويه ويناصره حتى يستغلظ ويقوى ويستوي قائمًا على سوقه ، وزرعٌ هذه صفته من شأنه أن يُعجب الزرَّاع ويأخذهم بروائه .

فمحمد عليه السلام ـ أو الإسلام متمثلاً فيه ـ شبيه بالزرع ، والزرع تحيا به النفوس ، ويبهج النظر بخضرته وبهائه .

وفي هذا التشبيه كثير من اللطائف والأسرار ، منها ما تقدَّم ، ومنها كذلك أن الإسلام كان سريع الانتشار والاستقرار ، يدل على ذلك العطف بالفاء في قوله : ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ .

ومنها أن الإسلام كان يتم كماله في صورة دقيقة وحكمة وتدبير حيث شُبِّهت أطوار نموه بأطوار نمو الزرع ، وهي مراحل طبيعية لا ارتجال فيها ولا مخالفة لسُنَن النشوء والارتقاء .

ثم كان هذا الزرع لقوته وحُسن روائه باعثًا على حالتين : إعجاب الزُرَّاع به ، ثم غيظه الكافرين .

« إنه زرع من نوع خاص ينمو ولا يذبل .. يقوى ولا يضعف .. وهكذا كان محمد ﷺ وصحبه »[1] .

ووجه الشبه شيء يبدو صغيرًا ثم ينمو ويقوى ويكتمل فيعجب الأحباء ، ويغيظ الأعداء .

ومن ذلك : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَىٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٧٣) .

في هذه الآية مدح وثناء للفقراء الزاهدين فيما في أيدي الناس ، وهم لشدة زهدهم وتظاهرهم بالغنى أشبهوا الأغنياء عند الجاهل بحالهم ، ولأن الغنى نوعان : غنى عن المال بالمال ، وغنى عن المال بالقناعة والتعفف ، والثاني فضيلة من فضائل النفس يستحق أصحابها المدح والثناء .. ولهذا مدحهم القرآن .

٢- وصف النساء والحور والوِلْدَان :

وصف القرآن النساء لغاية دينية إذ بها يحفظ الرجل نفسه ودينه من الوقوع في المحظور ، والقرآن في وصفه للمرأة لم يصف جمالها الحسي ، وإنما وصف جمالها النفسي المعنوي ، وبذلك يفارق وصف المرأة في القرآن ما دأب عليه الشِّعر الجاهلي من الأوصاف الحِسِّية ، والالتذاذ المادي الوضيع .

وعليه جاء قول الشاعر :

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى جِيْدَهَا تَثَنَّتْ عَلَيْهِ فَكَانَتْ لِبَاسَا

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٩٤ .

فقد شبههن ـ القرآن ـ باللباس مرة فقال : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة:١٨٧) .

واللباس فيه معنى الحفظ والوقاية من الأخطار ، وفيه معنى التجمل والزينة في أعين الناس ، وفيه معنى حفظ العورات وما لا يحب أحد أن يطلع عليه الناس .

والفرق بين التعبير القرآني وبين قول الشاعر أن المراد باللباس في القرآن معناه المجازي بكل ما يحمل اللفظ ، أما في قول الشاعر فإن اللباس مراد به معنى حسي مكشوف .

لهذه المعاني شبَّه القرآن النساء باللباس للرجال ، ثم شبَّه الرجال باللباس لهن ، لأن كُلاً منهما يحفظ الآخر ويحميه ويزينه .

لذلك امتن به على خلقه فقال : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ (الأعراف:٢٦) .

ويرى ابن الأثير أن تشبيه المرأة باللباس لم يُعرف قبل وروده في القرآن الكريم[1] .

وهذا الوصف من شأنه أن يُرَغِّب الرجال في البناء بالنساء ، والنساء في الحفاظ على روابط الأسرة واستمرار سعادتها .

وشبههن مرة بالحَرْث فقال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (البقرة:٢٢٣) .

وتشبيه المرأة بالحرث من حيث أن كُلا منهما ـ المرأة والحَرْث ـ موضع أمل ... فالأرض تنبت ما به قوام الحياة ، والنساء ما به يحيا النوع الإنساني ، ويستمر في عمارة الأرض ، فبين المعنيين تعانق .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير : ١٣٣/٢ .

● وصف الحور والوِلْدَان :

في وصف الحور جاء الحديث في القرآن عن الجمالين : الحسي والمعنوي ، لا تكاد صورة من صور التشبيه والتمثيل لهن تخرج عن هذا الهدف .

قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصافات:٤٨،٤٩) .

وقال : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:٥٨).

وقال : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة:٢٣) .

وقال في وصف الوِلْدَان : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (الإنسان:١٩) .

في هذه النصوص الكريمة شُبِّهت الحور بالبَيْض المكنون في الأداحي ، وبه تُشَبِّه العرب النساء وتسميهن « بيضات الخدور »[1] .

ونلمح في هذا التشبيه معنيين هما : الرقة والبياض ، وهذان وصفان راجعان إلى جمال الأنثى الحسي ، وإن كانت الرقة أقرب إلى الجمال النفسي منها إلى الحسي ، ولأنهما راجعان إلى ما ذكرنا ، فهما لا يكفيان وحدهما في المدح والثناء ، بل لابد من وصف آخر يكمل النعمة ، وصف آخر خُلُقي لأن المرأة لا تُمدح لجمالها وحده فجمالها قد يرديها كما جاء ذلك في الحديث الشريف[1].

وقد تكفّل بهذا الوصف الخُلُقي قوله تعالى : ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ أي محفوظ مصون ، وهذا معناه العفة وقصر استمتاعهن على أزواجهن ، وقد أكّد هذا قوله تعالى : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ (الصافات:٤٨)، وقوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ (الرحمن:٧٢) .. وهذا أقصى ما يتطلبه الحر في المرأة .

وكما نلمح في تشبيههن بالياقوت والمرجان معنى النفاسة والزكاوة ؛ لأن مَن يملك شيئا من هذين النوعين فهو عليه حريص وبه معتز[2] .

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٣/٤ .

(٢) انظر : من بلاغة القرآن ـ للدكتور أحمد أحمد بدوي .

وكذلك قوله تعالى ﴿ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة:٢٣).. لأن اللؤلؤ قسيم الياقوت والمرجان فيما ثبت لهما من المعاني الشريفة والنضارة واللمعان ، وهو لؤلؤ مكنون لم تعبث به يد عابثة .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن:٥٦) .. فالعفة والحصانة أبرز ما توصف به الحور العين فضلاً عن الجمال الحسي والاكتمال الخُلُقي .

أما الوِلْدَان ، فقد شُبِّهوا ـ أيضًا ـ باللؤلؤ فأفاد هذا التشبيه جمال النظر ونفاسة الذات .

ثم وصفه بأنه «منثورًا» فالوصف هنا مغاير للوصف في جانب الحور العين .. هناك يثبت العفة والحصانة والطهارة لإناث الحور ، والعفة والطهارة أكرم أوصاف الإناث على الإطلاق ولا يضر الأنثى ما فاتها بعدهما .

أما الوِلْدَان فإن القصد إلى كثرتهم وانتشارهم لخدمة أهل الجنَّة أمر مطلوب ، وليسوا هم بحاجة إلى إثبات العفة لأنهم ليسوا مظنة التبذل .. ولهذا جاء الوصف ـ هنا ـ كما كان ـ هناك ـ وافيًا بالغرض : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (الإنسان:١٩) .

فهم في صفاء اللؤلؤ وانتشار الكواكب ، وصدق الله العظيم ، ما أحسن قوله وأحكم كتابه .

٣- وصف الجنة :

قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣).

وقال : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد:٢١).

« في الآيتين حديث عن عرض الجنَّة دون الطول ، لأن ما له عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا عُرِف عرضه بالبسطة عُرِف أن طوله أبسط وأمد»[1] .

ويرى السعدي ـ كما يذكر الزمخشري[2] ـ أن العرض قد يُراد به البسطة وليس ما يقابل الطول ، كقوله تعالى : ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت:٥١) ويكون المعنى : بسطتها كبسطة السماء والأرض .. والآيتان تصفان الجنة من حيث الاتساع أو المساحة ، وهذا ظاهر .

وقال سبحانه : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾

(الرعد:٣٥) .

وقال سبحانه : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد:١٥) .

وهاتان تتحدثان عن نعيم الجنَّة لا عن عرضها وطولها ، وهما تدخلان في باب التشبيه من حيث أن المراد بالمثل فيهما الصفة الشبيهة بالمثل في غرابتها[3].

وآية «محمد» كالتفصيل لآية «الرعد» .

ففي آية «الرعد» إشارة مجملة إلى نعيم الجنَّة ، وفي آية «محمد» تفصيل وتسمية لألوان ذلك النعيم .

(١،٢) نقله الزمخشري عن السدي في الكشاف : ٣٨٢/٤ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٢٤/٤ .

وفي «الرعد» إشارة إلى دوام الأكل وإن انفردت بذِكر الظل، وفي «محمد» تعيين لذلك الأكل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (محمد:١٥).

والآيتان تثبتان للجنَّة الموعود بها المتقون كل أسباب البهجة والنعيم الخالد، وقد اشتملت آية «محمد» على زيادة لا بد لها من توجيه، وهي قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد:١٥).

وقد تطوَّع الزمخشري بهذا التوجيه فقال: «فإن قلتَ: ما معنى قوله تعالى: «مثل الجنة التي وُعِدَ المتقون فيها أنهار .. كمن هو خالد في النار ...» ؟

قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي والإنكار، لانطوائه تحت كلام مصدَّر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه، وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ (محمد:١٤)، فكأنه قيل: «أمثل الجنة التي وعد المتقون .. كمن هو خالد في النار» ؟

فإن قلتَ: فلِمَ عرى من حرف الإنكار، وما فائدة التعرية ؟

قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة مَن يسوي بين المتمسك بالبيِّنة، والتابع لهواه وأنه بمنزلة مَن يسوي بين الجنَّة التي تجري تحتها الأنهار وبين النار التي يُسقى أهلها الحميم»[1].

والحق أن ما ذكره الزمخشري كلام في منتهى الجودة، وكذلك يرى العلاَّمة أبو السعود في تفسيره، وقد زاد كثرة التقديرات إذ أورد الوجوه الآتية:

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمَّنْ هو خالد في الجنَّة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النار ؟

وقيل: معناه أمثل الجنة كمثل جزاء مَن هو خالد في النار ؟

ففي الكلام حذف متضايفين.

أو: أمثل أهل الجنة كمثل مَن هو خالد في النار ؟

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ٤/٢٢٥.

قال : «وعرى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف تصويراً لمكابرة مَن يسوي بين المتمسك بالبيِّنة وبين التابع للهوى بمكابرة مَن يسوي بين الجنَّة الموصوفة بما فصل من الآيات الجليلة وبين النار»[1] .

(٢) في التخويف والتحذير :

الترغيب والترهيب وسيلتان من وسائل تربية الجماعات والأمم ، وقد تقدَّم دور التشبيه القرآني في مجال الترغيب والوصف المحبَّب للموصوف ، ونتناول فيما يأتي دوره في الترهيب وما يتصل به من معان .

١- وصف الدنيا :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف:٤٥).

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس:٢٤) .

وقال : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد:٢٠) .

● ملامح مشتركة بين الصور الثلاث :

هذه الصور الثلاث اشتركت في معنى عام لم تخل منه واحدة منها وهو تشبيه الدنيا بماء أنزله الله من السماء ، فأحيا الأرض بعد موتها ، وأنبتت

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٨٨/٤ .

واخضرت واكتملت صورة الأرض بالأشجار والزروع المختلفة الطعوم والألوان والحجوم فدبت على ظهرها الحياة مرحة نشيطة ، وحالف الحظ أقوامًا فملكوا من حطامها وعروضها الكثير ، وسخَّروها لخدمتهم وتوصَّلوا إلى بعض من أسرارها وقد بدت في أعينهم عروسًا فاتنة ، وظنوا أنهم قادرون على إخضاعها لأغراضهم فركنوا إليها واثقين ، وبينما هم كذلك جاءها أمر الله فدمرها تدميرًا وأصبحت أثرًا بعد عين كأن لم يكن لها وجود سابق .

والصور في المواضع الثلاثة من الصور المركَّبة شُبِّهت فيها الحياة الدنيا في زهوها وسرعة فنائها بصورة الزرع في نموه وازدهاره ، وصيرورته هشيمًا جافًا وأعوادًا متهشمة متكسرة لا يتعلق بها أمل ، ولا تغني عن شيء ؛ فجدير ألا يطمئن إليها عاقل ولا يغتر بها إنسان .

أو الوجه ـ كما يقول الزمخشري ـ : «سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال»[1] .

وقد برزت في ثنايا التشبيهات الرئيسية صور بيانية تدور حول التشبيه والمجاز والقصر .

ففي آية «يونس» وردت التعبيرات الآتية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ .. وهذا مجاز طريقه الاستعارة التمثيلية ، قال صاحب الكشاف : «جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزيَّنت بغيرها من ألوان الزين»[2] .

ووردت عبارة : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ فـ «أتاها أمرنا» مجاز حكمي علاقته المفعولية والتقدير : آتيناها أمرنا ، وفي الإسناد إلى الأمر من المبالغة والفخامة ما فيه ، و«جعلناها

(١، ٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٢٦٧ .

حصيدًا» تشبيه مؤكد محذوف الأداة أي كحصيد ، و«حصيد» بمعنى مفعول ووضع «فعيل» مكان «مفعول» لما يشعر به من المبالغة في المعنى .

و«كأن لم تغن بالأمس» ، تشبيه مرسل لذكر الأداة فحواه تنزيل وجود الدنيا حيث كانت بمنزلة العدم لسرعة فنائها وذهاب أثرها .

كما اشتملت الفاصلة على تشبيه : ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾(الأعراف:٣٢).. أي مثل هذا التفصيل الواضح تفسيرنا لكل الآيات .

وآية «الكهف» اختصرت المسافة من أقصر طريق ، وقد وصفت الهشيم الذي شُبِّهت به الدنيا بأنه «تذروه الرياح» لدقة أجزائه وجفافه .

وحقّرت آية «الحديد» الدنيا ووصفتها عن طريق التشبيه المؤكد بأنها : «لعب ولهو» وهما لا يجديان على صاحبهما غير الألم والحسرة .

ثم قصرت : «آثر الحياة الدنيا» عند الراكنين إليها بأنه «متاع الغرور» قصر موصوف على صفة وطريقه النفي والإثبات .

وترى التئامًا ساحرًا بين مطلع الآية وفاصلتها .

٢- وصف الأعمال المخالفة للتوجيه الإلهي :

من ذلك وصف الغيبة في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات:١٢).

فقد شبَّه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتًا ، وهذه صورة تعافها النفوس .. وتنفر عنها الطباع .

قال الزمخشري : «تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتَّى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى «أحدكم» والإشعار بأن أحدًا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها لأنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخًا ، ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتًا»[1] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٩٧/٤ .

وهذه اعتبارات دقيقة لحظها الزمخشري تُسجَّل له ، ولكن جعله الاستفهام للتقرير لا يرتاح إليه الفكر ، والأولى حمل الاستفهام على الإنكار كقوله تعالى : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾(آل عمران:١٠٦).. وذلك لأن الاستفهام التقريرى يكون مدخوله مثبتًا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح:١).

ومدخول الاستفهام في آية الغيبة منفي ؛ فكيف للزمخشري أن يجعل الاستفهام معه للتقرير ؟

ومنها أيضًا قوله تعالى محذرًا من نقض الأيمان والعهود : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾

(النحل:٩١،٩٢) .

خاطب الله العرب بما هو مألوف لهم ، من ذلك الصورة المشبَّه بها في الآية الكريمة ، و« نقض الغزل » يؤدي إلى إفساده حيث يُراد الانتفاع به ، ولا يحب أحد أن يبطل عملاً بدأه أو أكمله خاصة إن كان هذا العمل موضع أمل .

والتي تنقض غزلها خرقاء لا عقل لها ولا رشاد .. هي كمن يحرث في البحر يكد ويتعب فيما لا يعود عليه بنفع .

والنقض في جميع استعمالاته يدور حول الإفساد والإبطال .

قال الراغب : « النقض انتشار العقد من البناء ، والحبل والعقد وهو ضد الإبرام ، ومن نقض الحبل والعقد استعير نقض العهد .. ».

لذلك وقع التحذير بهذه الصورة لتكون أوقع في النفس ، وأحرى بالالتزام .

ومنه التحذير من الإنفاق على غير الصفات المطلوبة .

قال سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ

ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢٦٦) .

جاءت هذه الآية بعد ثناء على المنفقين في سبيل الله ، ولا ينفقون إلا عن إيمان به ورضا نفس وحب فيه، فكان فيها ترغيب لهم فيما استحقوا عليه الثناء.

أما هذه الآية فجاءت مُحذِّرة من مخالفة الأصول الشرعية في الإنفاق .

قال الزمخشري : « وهذا مثل للذي يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله ، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر حسرة مَن كانت له جنَّة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغه الكِبَرُ ، وله ذُرِّية ضعفاء ـ والجنَّة معاشهم ـ فهلكت بالصاعقة »[1] .

وإذا كانت هذه الآية مسوقة لتنفير الناس من الإنفاق على غير وجه الشرع فقد حفلت الصورة الأدبية فيها بعبارات أدت المعنى على وجه حكيم .

فالرجل صاحب الجنَّة المذكورة التي فيها النخيل والأعناب ، والأنهار تجري من تحتها وله فيها من كل ثمر نصيب ، ذلك الرجل قد حلَّت به الشيخوخة فأضعفته فهو غير قادر على الكسب مما سواها ، وله أولاد ضعاف في حاجة إلى ثمارها ، أصابها إعصار مدمر فيه نار فاحترقت في غمضة عين .

فلو كان هو شابًّا لهان الخَطْب ، ولو كان أولاده أقوياء لهان الخَطْب ، ولكن كيف وهو وأولاده بتلك الصفة .

ومما يزيد من الحسرة : أن الواقعة كانت مفاجئة فلم تكن هناك فرصة للاحتياط ، والاحتراق أعقب الإصابة فلم تكن هناك فرصة للإنقاذ .

﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ وهل تنكير الإعصار والنار إلا لإرادة التهويل من شأنها .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/ ٢٤٠ .

ومثل هذه الآية التحذير من أكل الربا في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

(البقرة:٢٧٥) .

فصورة الإنسان الذي يتخبطه الشيطان من المس صورة بغيضة إلى النفس ، فمَنْ أراد أن يكون كذلك لا يتورع أن يأكل الربا !

وهل يرضى عاقل هذا المصير لنفسه ؟

ومنه التحذير من أذى الأبرياء كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (الأحزاب:٦٩) .

٣- التخويف من أهوال المحشر :

للتشبيه في القرآن الكريم دور هام في الحديث عن يوم القيامة ، وحديث القرآن عن يوم القيامة على أنواع :

أولاً : إمكان وقوعه

أي أنه ليس كما يقول المنكرون أنه مستحيل الوقوع ، وفي هذا الجانب وردت النصوص الآتية :

قال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٣).

وقال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) .

وقال : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم:١٩) .

وقال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

(لقمان:٢٨).

وقال : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (فاطر:٩).

وقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف:٢٩).

● **قياس واضح يُلزمهم بالتصديق :**

في النصوص القديمة يهدف القرآن إلى إثبات صحة وقوع البعث فقند تلك الشُبهة الواهية التي بنى عليها المنكرون مذهبهم فيه ، حيث استبعدوا وقوع البعث بعد الموت وصيرورتهم ترابًا وعِظامًا .

والحقيقة التي اعتمد عليها القرآن في هذا المجال حقيقة بدهية لا تحتاج إلى جدل طويل ، وقد ساق لهم القضية في أسلوب منطقي واضح لا يخرج عن التسليم به إلا مكابر .

فالله خلق الكون كله على غير مثال سابق ومن غير مادة تقدمت في الوجود عليه .. خلق مادته وشكل تلك المادة فيما نراه ونشاهده .. أرض وسماء .. أفلاك وأنهار .. صحاري وجبال .. إنسان وحيوان .

وبدهي أن الذي خلق الحياة أولاً فإن الإعادة ـ وإن استوى عنده أمرها مع أمر البداية ـ فهي أهون عليه .

وقياسًا عليه فإن البعث أمر ممكن في نفسه ، وإن كان من حيث الوعد به واجبًا شرعيًا ، جاء هذا القياس في أسلوب تشبيهي أدبي .

فالمشبَّه به هنا هو المقيس عليه من حيث أنه أمر واقع .. والمشبَّه هو المقيس وهو أمر متوقع .

وما دام نظيره قد ثبت وقوعه علمًا وعقلاً ، فإن ما قيس عليه أدخل في مجال الوقوع :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف:٢٩) .

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) .

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨) .

وجه الشبه في هذه النصوص ـ وما أشبهها ـ هو الإمكان واليُسر والسهولة ... وقد كان تحدي القرآن لهم واضحًا في القصة الآتية :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٧٨-٨٢) .

في هذا النص الكريم رد مفحم على دعواهم التي صدَّرها القرآن النص ، ثم أخذ في الرد عليها فلم يتركها شيئًا ذا قيمة .

قاس أمرًا متوقَّعًا على ما هو واقع فعلاً ، ليستوي معه في إمكان الوقوع ، وبذلك تندحض شُبهتهم .

ثانيًا : قرب وقوع يوم القيامة

وفي ذلك وردت النصوص الآتية :

قال سبحانه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

وقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (النازعات:٤٦).

في آية «الأحقاف» شبَّه مدة لبثهم قبل القيامة بكونها ساعة من نهار ، هكذا : ساعة من نهار .. لم تزد عليه ، والساعة الملبوثة «نكرة» من يوم «نكرة» كذلك ، ولعل التنكير هنا مقصود به التقليل ، ولتلك القِلَّة لم يحفظوا لهما صورة في الذاكرة فصارتا عندهم وقتًا مبهمًا ، ووجه الشبه بين الطرفين : قصر المدة .

وقد جاء قصر هذه المدة عن طريق المجاز الاستعاري في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر:١-٢) . حيث شبَّه مدة لبثهم في القبور بالزيارة .

ويروى أن أعرابيًّا سمع هذه الآية فقال : لقد بُعِثَ الناس[١] .

والتشبيه في آية الأحقاف ذو غرضين :

أحدهما : تثبيت النبي ﷺ حتى لا يستعجل لهم العذاب ، لأنهم حين يرونه لم يشعروا إلا بقصر عيشهم الذي كانوا فيه .

وثانيهما : تهديد المنكرين بقرب ما يوعَدون .

وفي آية «النازعات» شُبِّهت المدة الملبوثة قبل القيامة بعشية يوم أو ضحاه ، وهذا تفسير للساعة في آية «الأحقاف» ، وهي هنا جزء من اليوم لم تتعده ، وقد أضيف الضحى إلى ضمير «العشية» ولم يقل : أو ضحًى ؛ ليكون الجزءان من يوم واحد ، ولو قطع «الضحى» عن هذه الإضافة لجاز وقوع «العشية» في يوم والضحى في يوم آخر ، وهذا يؤذن بتعدد أيام الدنيا في موقف يُراد فيه بيان القصر الواقع فيها فهو لا يخدم المعنى ولذلك عُدِلَ عنه .

وإضافة «الضحى» إلى ضمير «العشية» لمحة بيانية لتحقيق التشبيه[٢] .

وقد جاء عن غير طريق التشبيه : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٢-١١٤).

ثالثًا : طول يوم القيامة

ويقابل قصر المدة السابقة على يوم القيامة ، طول اليوم نفسه ، أي طول يوم القيامة ، وفي هذا وردت النصوص الآتية :

---

(١) التفسير البياني جـ ١ ـ بنت الشاطئ .

(٢) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٥٩/٤ .

قال سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج:٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج:٤٧) .

وقال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة:٥) .

هذه ثلاث آيات تصف يومًا يتبادر إلى الذهن وشاع عند الناس أنه يوم القيامة ، ولذلك آثرنا تسجيل هذه الآيات الثلاث هنا لندرسها من خلال آراء العلماء فيها وما يبدو للنظر من توجيه .

وأول ما يُلاحَظ على هذه الآيات أن اثنتين منها تصف اليوم في الطول بألف سنة ، والأخرى تصفه ـ في الطول أيضًا ـ بخمسين ألف سنة .

وهذا الاختلاف في الوصف يحمل على الاعتقاد بأن اليوم الوارد في الآيات الثلاث ليس المراد به يومًا واحدًا ، بل يومان على الأقل .

لذلك اهتم العلماء بالبحث في هذا الإشكال .

ويتلخص رأي الخطيب الإسكافي في التمييز بين اليوم الموصوف بألف سنة وهو الوارد في سورتي الحج والسجدة ، وبين اليوم الموصوف بخمسين ألف سنة وهو الوارد في سورة المعارج .

فما وُصِفَ في «المعارج» بأن طوله خمسون ألف سنة فهو يوم القيامة ، أما ما في آية «الحج» فإن المراد به عنده مضاعفة العذاب ومضاعفة النعيم ، يعني أن يوم العذاب ينال فيه العاصي من العذاب ما يناله في ألف سنة لشدة الهول .. ويوم النعيم ينال فيه المُنَعَّم خيراً كثيراً ينال مثله في ألف سنة من أيام الدنيا .

أما ما في «السجدة» فإن المراد به وقت نزول وعروج الملائكة بأمر الله ،

إذ يكون نزولهم وصعودهم في يوم واحد ، وما بين السماء والأرض خمسمائة سنة ، فيكون مجموع الصعود والنزول ألف سنة[1] .

وللخطيب الإسكافي رأيان آخران :

أحدهما : أن يكون اليومان في «الحج» و«السجدة» من أيام الله التي خلق فيها السموات والأرض ، ويوم «المعارج» هو يوم القيامة .

ثانيهما : أن يكون الحديث في المواضع الثلاثة عن يوم القيامة ، والمعنى أنه لا آخر له .

وفيه أوقات مختلفة طولاً وقصراً[2] .

والعلاَّمة أبو السعود المختار عنده أن اليومين اللذين في «الحج» و«السجدة» يومان آخران غير يوم القيامة ، فيوم «الحج» من أيام الدنيا ، والعذاب المستعجَل هو العذاب الذي نزل بهم في الدنيا وطال اليوم لشدته عليهم[3] ، ويوم «السجدة» هو يوم صعود وهبوط الملائكة بتدبير الأمر ، وهو يوم القيامة ، ولكن أبا السعود لم يرتح لهذا الرأي[4] ، ولم يقطع في اليوم الوارد في آية «المعارج» برأي واضح بل اكتفى بأن يراد به يوم القيامة أو هو عبارة عن بُعد المعارج والعرش[5] .

ولم يخرج الزمخشري عما فصَّله أبو السعود ، فاليومان في «الحج» و«السجدة» الأرجح عندهما أنهما غير يوم القيامة ، ويوم «المعارج» الأظهر أنه يوم القيامة عند الزمخشري ، أما أبو السعود فهو عنده مجرد احتمال .

---

(١) انظر : غرة التنزيل ودرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٣) تفسير أبي السعود : ٤/٢٢٥ .
(٤) المرجع السابق : ٤/٢٩٧ .
(٥) المرجع السابق : ٤/٧٦٦ .

● والخلاصة :

أن النظم القرآني في المواضع الثلاثة ليس فيه دلالة قطع على أن المراد باليوم فيه هو يوم القيامة أوغيره من أيام يعلمها الله ، والذي يبدو من ظاهر الآيات وسياق الكلام الذي وردت فيه أن اليوم المذكور في آية «الحج» هو يوم من أيام عذاب الله الكافرين ، والمعنى : أن يومًا واحدًا منها عظيم في شدة وقعه عليهم لدرجة أن ما ينالهم فيه من عذاب لا ينال مثله إلا في ألف سنة من أيامنا المعهودة ، لأن أيام الشدائد تطول على حد قول الشاعر[1] :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ قَاتِلِي وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

وقول الآخر :

فِي لَيْلٍ صَوْلٍ تَنَاهَى العَرْضُ وَالطُّولُ كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بَالحَشْرِ مَوْصُولُ

أما اليومان اللذان في «السجدة» و«المعارج» فيتبادر تعلقهما بالعروج ، وعلى ذلك فإن العروج نوعان :

نوع يتم في يوم يعادل ألف سنة من دورة الفلك ، وقد سبق تفسير ذلك عند الخطيب الإسكافي .

ونوع يتم فيما يعادل خمسين ألف سنة ، وحقيقة ذلك مما يعلم الله وحده .

أما إرادة يوم القيامة بيوم آية «الحج» فبعيدة ، وكذلك آية «السجدة» وإن كان احتمال إرادة يوم القيامة فيه ـ أي اليوم المذكور في آية «السجدة» ـ قويًّا بخلاف ما في آية «الحج» .

أما آية «المعارج» فإن حمل اليوم فيها على يوم القيامة رأي تؤيده القرائن ويكفي أن ننظر إلى الآيات التي جاءت آيتنا في سياقها ليتأكد لنا ذلك التأييد.

قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ

---

(١) النابغة الذبياني .

﴿ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾

(المعارج:٦-١٥) .

فهذه الظواهر لا تكون إلا يوم القيامة ، وهذا يُرجِّح أن يكون المقصود هنا يوم القيامة ، ما لم نعتبر إرجاع الضمائر على العذاب الوارد في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ (المعارج:١) لأن كُلاً من العذاب ، واليوم المذكور في قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج:٤) ، صالح لإرجاع الضمير عليه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ (المعارج:٦،٧) ، أى يرون العذاب أو اليوم الطويل .

وأيّاً كان اليوم المذكور في هذه الآيات الثلاث فإن التشبيه قد أفاد طوله غير المعهود لأنه يوم تحدث فيه من الأعمال أو الأهوال ما لا يحدث مثله إلا في الزمن المشبَّه به ، والله أعلم .

● **أهوال القيامة :**

وتحدَّث القرآن ـ كذلك عن طريق التشبيه عن الأهوال الجسام التي تقع يوم القيامة والظواهر التي ليس للناس بها عهد .

وفي هذا الجانب وردت النصوص الآتية :

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف:٤٨) .

وقال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:٢) .

وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾

(المعارج:٨،٩) .

وقال : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾

(القمر:٧) .

وقال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة:٤،٥).

فهذه أهوال وظواهر غير معهودة تحدث يوم القيامة ساقها القرآن عن طريق التشبيه .

ففي آية «الكهف» شبَّه بعثهم وعرضهم على الله بهيئتهم وحالهم عند النشأة الأولى : ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، ووجه الشبه هنا أنهم مجرَّدون من كل حَول وقوة ، لا مال لهم ولا ولد ، حفاة عراة إلا مَن اكتسى بلباس التقوى ، ولا يبعد أن يدخل في وجه الشبه اعتبار الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ (هود:١٠٣) .

والزمخشري يُرجِّح أن وجه الشبه كونهم حفاة عراة ، لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا[1] .

وفي آية «الحج» جاء تمثيلهم بالسكارى ، وقد مهَّد لهذا التشبيه بأهوال تسلم مَن شاهدها إلى ما يشبه السُّكر من الذهول والهذيان وفقد الإدراك .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

(الحج:١،٢) .

و﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ كناية عن صفة هي الفزع من شدة الهول وانشغال كل امرئ بما كسب : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ (عبس:٣٤،٣٥) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٦٢٩/٤ .

وآية «المعارج» أبانت الأطوار التي ستئول إليها السماء إذ تكون كالمهل وهو دردي الزيت كما سبق .

أما الجبال فستكون مثل الصوف المصبوغ المتفرّق ، إذا طيَّرته الريح[1] .

وجاء تشبيههم في «القمر» بالجراد المنتشر في الكثرة والانتشار ، كما جاء تشبيههم في «القارعة» بالفراش المبثوث ، ووجه الشبه الكثرة والضعف والتموج والاضطراب .

وقال في «المعارج» : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (المعارج:٤٣) ، الإيفاض : السرعة ، والنُّصب : كل ما نُصِبَ وعُبِدَ من دون الله ، وهذا التشبيه مقصود به الكافرون ، ففي التشبيه بإيفاضهم إلى النُّصب تهكم بهم ، وتوبيخ لهم ، كأنهم يسرعون نحو أصنامهم التي كانوا يعبدونها لتنجيهم مما هو واقع .

وجاء في «الرحمن» : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن:٣٧) .

«وردة» : أي حمراء ، و«الدهان» : الزيت .

هذه معان جد رائعة عرفناها في القرآن الكريم عن طريق التشبيه في أسلوب جزل واضح ، والآن ننتقل إلى مجموعة أخرى وهي :

١- في مجال القدرة الإلهية :

وفي هذا المجال وردت النصوص الآتية : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (هود:٤٢) .

شبَّه الموج بالجبال في الضخامة والامتداد الشامخ ، ومع هذا فإن السفينة ـ سفينة نوح ـ ظلت تمخر الماء في سلام ، وتشبيه «الموج» بالجبال ضرورة

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٦٧/٢ ، وتفسير النسفي : ١٦/٣ .

بيانية لأن المقام يقتضي إبراز نعمة الله وكيف نجى المؤمنين وسط الطوفان وتلاطم الأمواج .

ومن ذلك تشبيه السفن نفسها بالجبال في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ (الرحمن:٢٤) .

والوجه ـ هنا ليس مجرد الضخامة ـ بل هو ملاحظة الاستقرار مع كونها تجري في البحر ، لا تضطرب ولا تميد ميدًا يؤدي بها إلى الهلاك ، وآثر هنا «الأعلام» مكان «الجبال» لأن العَلَم هو الجبل الطويل[1] لا مطلق جبل ، ولا شك أن السفن أضخم وأكثر شموخًا من الموج .

وهذا ملحظ دقيق لاستعمال أحد المترادفين فيما هو به أولى ، لم يُعرف ذلك على دقته وروعته في غير القرآن .

وكما شبَّه الموج بالجبال شبَّه بالظلل ، وهي القطع من السحاب فقال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (لقمان:٣٢) .

وفي تشبيه الموج بـ «الظلل» التي هي سحاب ملحظ دقيق وجدة ظاهرة ، وليس فيه تشبيه الشيء بنفسه وإن كان كل منهما ماء ، لأن وجه الشبه الضخامة وأوثر لفظ «الظلل» على «السُّحُب» لأنه يشعر بأن الموج ارتفع فوق ظهر الماء حتى صار له ظل ، وهذا أنسب من حيث المقام .

وجاء تشبيه الجبل بالسحابة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ (الأعراف:١٧١) .

وهذا مثل من قُدرة الله لما صدَّ بنو إسرائيل عن العمل بما شرعه الله لهم قلع جبل «الطور» ورفعه فوق رءوسهم كأنه سحابة مظلة وهددهم إذا لم يمتثلوا أمره بأن يسقط عليهم الجبل[2].

(٢،١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٤٤/٤ ، تفسير أبي السعود : ٦٦٣/٤ .

ووجه الشبه الارتفاع والإظلال ، والغرض بيان قُدرة الله وتهديد بني إسرائيل ليتعظ مَن عداهم .

وجاء في مبدأ خلق الإنسان قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن:١٤) .

« الصلصال » : الطين اليابس الذي له صلصة ، و« الفخار » : الخزف ، ووجه الشبه الجفاف واليبوسة .

وأصل الصلصلة تردد الصوت من الشيء اليابس[١] ، والغرض من هذا التشبيه تذكير الإنسان بمبدأ خلقه وكيف أن قُدرة الله قد أخرجته من هذا المبدأ إلى ما هو عليه إنسانًا سويًا ، وذلك أدعى للشكر ، فهو مسوق للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النِّعَم[٢] .

وجاء في تشبيه السرعة : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ (القمر:٥٠).

وقد جاء هذا التشبيه في أسلوب قصري محكم البناء ، ويهدف إلى تحقيق غرضين : السرعة الفائقة ، واليُسر .

وقد أوفى التشبيه بالغرضين أيما وفاء ، وأين منه قول الشاعر :

ظَلَلْنَا عِنْدَ بَابِ أَبِي نَعِيمٍ يَوْمٍ مِثْلِ سَالِفَةِ الذُّبَابِ

وأين منه قول الآخر :

وَيَوْمٍ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرَ طُولَهُ دَمُ الزِّقِّ عَنَّا وَاصْطِكَاكُ المَزَاهِرِ

قوة وجزالة في التشبيه القرآني ، وعفة ألفاظ ، لا نجد لها مماثلاً فيما سواه ، مع أن التشبيه القرآني ـ هنا ـ وفي كل موضع مختص ، بالتفوق والدقة في تصوير المعاني وتقريبها للفهم .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٨٤ .

(٢) تفسير أبي السعود : ٦٦٣/٤ .

٢- باقة من زهور :

تقدمت الإشارة إلى هذا في صدر هذا الفصل ، ونستعرض فيه أنماطًا من التشبيه والتمثيل لا تخضع لغرض واحد ، وإن أمكن توزيعها على بعض الفروع السابقة .

من ذلك قوله تعالى في تشبيه اليهود : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥) .

أراد الله أن يصف اليهود بترك العمل بما علموا ، فاختار لهم هذا المثل : «حمار» يحمل أسفار العلم ونفائس المعارف ، فهو يحملها على ظهره ويصطك بها جنباه ويعاني من تعبها والكد في معاناة السير بها دون أن يعي شيئًا مما حوته .

فقد نزَّل علمهم بها - أي بالتوراة - منزلة الجهل بما فيها من حيث إنهم لم يعملوا بمقتضاها ، فلم يكن لهم مثل أقرب من مثل الحمار الذي تلك صفته .

فالتركيب ظاهر في جهة المشبَّه به ، لأنه ليس المراد تشبيههم بالحمار مجرد حمار ، بل الحمار على الهيئة المخصوصة .

وكذلك المشبه مركب أيضًا ، لأن المراد تشبيه اليهود بتلك الهيئة المخصوصة لا مجرد يهود .

والوجه شقاء كل باستصحاب ما يتضمن النفع العظيم ، والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شيء مع معاناة الكد والمتاعب في حمله[1] .

وقد سار هذا التمثيل مثلاً على أفواه المتأدبين والبلغاء .

وقال سبحانه في شأن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ (المنافقون:٤).

---

(١) البلاغة التطبيقية - الدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ٣٩ .

قال الزمخشري في توجيه هذا التشبيه : «شُبِّهوا في استنادهم ـ وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ـ بـ «الخُشُب المسندة» ، ولأن الخُشُب إذا انتُفِعَ به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام غير منتفَع به أسند إلى الحائط فشُبِّهوا به في عدم الانتفاع»[1] .

ولا يجوز أن يكون المشبه الأصنام لا المنافقين ، وهذا بعيد لأن الأصنام لا قول لها ، وصياغة الآية تُشعر بمعان دقيقة .

● **معان دقيقة :**

ذلك أن فيها شرطين ، أحدهما : الأداة فيه «إذا» وهو : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ .

وثانيهما : الأداة فيه «إنْ» وهو : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ .

وقد وقع الشرط الثاني قبيل التشبيه مباشرة فجاء التشبيه في حيزه .

إذن ـ فلماذا أوثرت «إذا» في الشرط الأول و«إن» في الثاني ؟

ولماذا أولى التشبيه الشرط الثاني وكان الأولى من حيث الظاهر أن يلي الشرط الأول ما دام التشبيه منصبًّا على الأجسام حسبما تقدَّم عند الزمخشري؟

وفي الإجابة عن هذه الأسئلة أرجِّح الآتي :

إيثار «إذا» في جانب الشرط الأول لعله ـ والله أعلم ـ لبيان حرصهم على غشيان مجالس رسول الله ﷺ طمعًا في الحظوة عنده ، ودفعًا للشك فيهم ، ورجاء أن يصيبوا بعض ما يفتح الله عليه من مال ، يبتغون من هذا الوجود إظهار الولاء والطاعة .

فلكثرة وقوعه منهم ، وحرصهم عليه ، صُدِّر بأداة الشرط المفيدة لتحقق مدخولها وهي «إذا» خاصة .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٤٣٣ .

أما إيثار «إن» في جانب القول فلعله ـ والله أعلم ـ لحرصهم ـ كذلك على عدم القول عنده إلا بحساب خشية أن يفلت منهم لفظ يكشف نواياهم وينم عما تخفى صدورهم من الكفر والنفاق ، فلم يكونوا ينطلقون في الحديث عنده لعدم ثقتهم في أن يقولوا كلامًا كله رائج عنده ، فكانوا لا يقولون إلا بحساب ولا يقولون إلا المنمق من القول .

ولهذه الاعتبارات صدر الشرط بـ «إن» المفيدة للشك في حصول مدخولها لأن «إن» وظيفتها ذلك الشك .

وأما إيلاء التشبيه الشرط الثاني فلأن له مدخلاً فيه ولو ولى الأول مباشرة لنبا المعنى .

وذلك لأن معنى الشرط الأول ـ منفصلاً ـ لا ينسجم معه معنى التشبيه لو حُمِلَ عليه فكان لابد من توسط الشرط الثاني .

فقولهم ـ إذن ـ هو سر افتضاحهم وإن حرصوا على تنميقه وتهذيبه .

لذلك أشبهوا «الخُشُب المسندة» التي عفا عليها الدهر فلم تصبح موضع أمل أو مورد نفع .

وبقي معنى دقيق لم أر مَن تنبَّه له وهو مستفاد من إيلاء التشبيه الشرط الثاني الذي فعل الشرط فيه : «يقولوا» .

وهذا المعنى هو إيهام أن المشبه هو القول ، على أن يكون المشبَّه به هو صوت الخُشُب المسندة لأنها لو أزيلت عن أماكنها سمعت لها دويًّا وطنطنة ليس تحتها معنى وليس لها مدلول .

وهذا يعني أن قولهم هراء لأن كل ما يصدر عنهم في حضرة الرسول إنما هو مبعثه النفاق والمخادعة .

ومن روائع تشبيهات القرآن : تشبيه المؤمنين بالإخوة مع اختلاف أنسابهم قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠) وهو تشبيه بليغ حسب مصطلح أهل الفن نزل فيه وصف الإيمان الصادق بمنزلة القرابة من الأب والأم .

وقال : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران:١٠٣) .. أي بنعمة الهداية .

وزوجات النبي أمهات المؤمنين ، قال : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ (الأحزاب:٦) ، أي في رعاية الحُرمة ، مع ملاحظة أنه لم يقل : النبي أبو المؤمنين ليتشاكل المعنى ، لأن القرآن نفى ذلك في سورة الأحزاب : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠) ، فما كان له أن ينفي هناك ، ويثبت هنا وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) .

ومنها ـ كذلك ـ تشبيه ضوء الفجر في أول عهده وظلام الليل في آخر عهده بالخيط الأبيض ، والخيط الأسود في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ (البقرة:١٨٧) ، لأنهما يكونان دقيقين في هذه اللحظة .

ومنهما تشبيه «الجفان» بالجواب في الاتساع وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ (سبأ:١٣) ، والجابية الحوض الذي يُجمع فيه الماء .

ومنها تشبيه كراهية بعض المؤمنين للقتال بالسوق إلى الموت في قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (الأنفال:٥،٦).

ومنها تشبيه الزوج غير مرغوب فيها ولا مُطلَّقة بالمعلَّقة في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩).

ولعل وجه الشبه هنا الاضطراب والتحير والقلق النفسي الذي ينتاب هذه الزوج .

ومن التشبيهات الضمنية قوله تعالى : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٩) .

جاء التشبيه الضمني في هذه الآية في استئناف تعليلي مبيِّن لسبب الأمر بخفض الصوت ، فرفع الصوت ليس فضيلة إذا كان لغير الحاجة .. والدليل أن صوت الحمير مع أنه أرفع الأصوات هو أنكرها ..

فكأنه شبَّه رافع الصوت بالحمار ، وشبَّه صوته بصوت الحمار .

ومنه كذلك قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ (لقمان:١٨) ، ناهيًا عن التكبر ، والصعر : ميل في العنق ، والتصعير : إمالته عن النظر كبرًا .

وأصل الصعر داء يصيب الإبل فتميل عنقها من أجله ، وهذه صورة قبيحة وكأن القرآن يُشبِّه المتكبر بالناقة المئوفة بالصعر قال الشاعر الجاهلي :

إذَا المَلِكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَيْنَا إلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُه

٣- التشبيه السلبي في القرآن الكريم :

أداة التشبيه في كل أسلوب تشبيهي تعقد صلة بين طرفين ، وتنبئك بأن المشبه تربطه بالمشبَّه به رابطة هي الصفة المشتركة بينهما ، لأن التشبيه في أبسط تعاريفه هو إلحاق أمر بأمر في صفة مشتركة بينهما بأداة تشبيه مذكورة أو مقدَّرة !

ولكنك تجد في القرآن الكريم ـ أحيانًا ـ هذه الأداة لا تعقد تلك الصلة بين طرفي التشبيه ، فهي تتوسطهما ، وليس بين ذينك الطرفين شبه ما ، فقد يكونان ضدين أو كالضدين أو غيرهما .

ويكثر هذا النوع من التشبيه والذي يمكن أن نصطلح على تسميته ـ من الآن ـ بالتشبيه السلبي كما جاء في العنوان ، عندما يتحدث القرآن عن الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والطاعة والمعصية .

وإليك النماذج :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾

(التوبة:١٩).

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(الأنعام:١٢٢).

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر:٢٢).

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٨).

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الزمر:٩).

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد:١٩).

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ (السجدة:١٨).

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١).

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ (محمد:١٤).

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨).

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الرعد:٣٣).

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ (محمد:١٥).

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٧) .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد:١٦) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة:٢٧٥) .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) .

● **وقفة تأمل :**

هذه نصوص برزت فيها التشبيهات السلبية حسبما اتفقنا من قبل على هذه التسمية .

وما هو حقيق بالملاحظة والتسجيل أن هذا النوع من التشبيه ذو خصائص مميزة يحسن بنا أن ننظر فيها .

أولاً : أنها صيغت على أسلوب التشبيه وليس بين الطرفين أدنى صلة ، والأداة إما مذكورة فيها ـ وهذا هو الغالب ـ وإما مقدرة ـ وهذا قليل ـ وقد ينصب النفي فيها على فعل فيه معنى التشابه مثل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ (الرعد:١٦) .

ثانيًا : أن هذه التشبيهات تكون حين يجري القرآن الكريم مقارنة بين معنيين ضدين أو كالضدين ، وهذا الأسلوب غير معثور عليه خارج القرآن إلا نادرًا ، وهو مع نُدرته ليس على طريقة هذه النصوص القرآنية ، لما فيها من جدة وجزالة ، ومن النادر لهم قول داود الأنطاكي :

فَقُـلْ لِمَـنْ يَرْغَـبُ فِـي أَسْـمَرٍ مَـا الفِضَّـةُ البَيْضَـاءُ مِثْـلُ النُّحَـاسِ[1]

وقال المتنبي[2] :

مَـا الَّـذِي عِنْـدَهُ تُـدَارُ المَنَايَـا كَالَّـذِي عِنْـدَهُ تُـدَارُ الشُّـمُولُ

ومن شواهد النحاة :

تَعَلَّـمْ فَلَـيْسَ المَـرْءُ يُولَـدُ عَالِمًـا وَلَـيْسَ أَخُـو عِلْـمٍ كَمَـنْ هُـوَ جَاهِـلُ

وأثر الاقتباس من القرآن ظاهر في البيت الأخير ، أما قول الأنطاكي السابق فمعناه : بارد لا عاطفة فيه ، وقريب منه بيت المتنبي .

ثالثًا : أن في كل أسلوب تشبيهي من هذا النوع استفهامًا إنكاريًّا هو سر السلب فيه ... وقد تخلو بعض هذه المواضع من ذلك الاستفهام الإنكاري لفظًا ويستفاد السلب حينئذ من أمر خارج عن الأسلوب ويكون الأمر المفيد للسلب : إما الشرع وحده كنفي التشبيه بين البيع والربا ، أو الشرع والعقل كنفي التشبيه بين من يَخلُق ومن لا يَخلُق ، أو العادة والواقع كنفي التشبيه بين الذكر والأنثى .

رابعًا : إن أداة التشبيه في بعضها قد حُذِفَت مع حذف المشبَّه به ولم يبق من أطراف التشبيه الأربعة إلا المشبه ، لأن الوجه محذوف ، كذلك .

وهذا ورد في أربعة مواضع :

موضع في «الرعد» في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ (الرعد:٣٣) .

وموضعان في «الزمر» أحدهما : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٢٢).

وثانيهما : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) .

(١،٢) فن التشبيه ـ الأستاذ علي الجندي : ١٠٧/١ .

والرابع في «فاطر» في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨) .

ومع هذا الحذف لثلاثة من أركان التشبيه ، لم يسم الباقي بعد الحذف استعارة .. والبيانيون يطلقون على ما كان شأنه كذلك : استعارة بالكناية .

لكنهم لم يقولوا هذا فيها ، أي في هذه الأساليب ، بل أبقوا التعبير على أصله من التشبيه .

والمانع من جعل هذه الأساليب استعارة مكنية أمران :

أحدهما : أن المحذوف ـ هنا ـ منوي التقدير وملاحظ وجوده لقوة الدليل عليه ، ولا بد من تقديره لأنه جواب استفهام مذكور أو مقدَّر ، ففي الكلام ـ إذن ـ إيجاز بالحذف .

ثانيهما : أن حمله على الاستعارة المكنية غير صالح لأن فيها لا بد من وجود رمز ينوب مناب المشبَّه به ، وليس في هذه الأساليب وجود لذلك الرمز ، وهذا لون من التشبيه لم نجده إلا في القرآن الكريم ، فهو خاصة من خصائصه لا جدال فيها .

ففي الآية التاسعة من الزمر : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ يقول الزمخشري: «من : مبتدأ خبره محذوف ، تقديره أفمن هو قانت كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه ، وقيل : معناه أمَّنْ هو قانت أفضل أو مَن هو كافر»[1] .

وقال في الآية الثانية والعشرين منها ، وهي : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ : «أفمن عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى شرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له»[2].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٩٠ .

(٢) المرجع السابق : ٤/٩٥ .

وقال في آية فاطر وهي : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا . . . ﴾ : « يعني أفمن زُيِّنَ له سوء عمله من الفريقين كمن لم يزيَّن له.. » [١] .

وقد حذا أبو السعود[٢] والإمام النسفي[٣] حذو الزمخشري مع الاختلاف في الصياغة بداهة .

وكذلك خرَّجوا آية الرعد على أسلوب التشبيه ، يقول النسفي : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ : « يعلم خيره وشره ويعد لكلٍّ جزاءه كمن ليس كذلك » ؟ [٤] .

وكذلك ذهب الإمامان الزمخشري[٥] وأبو السعود[٦] .. فقد أجمعوا على أن هذه الأساليب باقية على أسلوب التشبيه وإن كان المحذوف منها ثلاثة من أركانه .

خامسًا : سر مجيئها على التشبيه

إن مسوغ مجيء هذه الأساليب على طريقة التشبيه السلبي فيها واقع خارج القرآن ، والذي في القرآن هو نفي ذلك التشبيه هو سلب أن يكون بين ما عدوه خارج دائرة القرآن متشابهًا تشبيه ما ، فذلك خطأ في الحسبان جاء تصحيحه بسلب التشبيه بين الطرفين في القرآن الكريم .

فليس مَن أحياه الله بالهدى كمن مات بالضلال ، وليس مَن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك ، وليس من اتقى الله وخافه كمن عصاه وفجر .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٧٢/٣ .
(٢) تفسير أبي السعود : ٣٦٢/٤ ، ٤٦٠، ٤٦٥ .
(٣) تفسير النسفي : ٢٤٩/٤ ، ٣٣٦/٣ .
(٤) المرجع السابق : ١٩٣/٢ .
(٥) تفسير الكشاف ، الزمخشري : ٤١٤/٢ .
(٦) تفسير أبي السعود : جـ ٢ .

● التشبيه المقلوب :

بقيت صورتان اختلف فيهما .. إحداهما هو قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ (النحل:١٧).

فقد عدَّ هذا الموضع من التشبيه المقلوب وأصله : أفمن لا يخلق كمن يخلق .

والثانية هي قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة:٢٧٥) ، والأصل : إنما الربا مثل البيع ، فهو كذلك من التشبيه المقلوب وإنما كان الأصل كذلك في الآية الأولى ؛ لأن الكلام مسوق للإنكار ، أي إنكار أن يسوي ما لا يخلق بمن يخلق ، فيكون إلزامًا لهم بالحُجَّة حيث عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهًا بالله سبحانه وجعلوا غير الخالق مثل الخالق[١] .

وأجاب الشيخ حمزة فتح الله [٢] بأن الخطاب لعُبَّاد الأوثان ، وهم بالغوا في عبادتها حتى صارت عندهم أصلاً ، فجاء الإنكار على وفق ذلك .

ويقول السكاكي: «عندي أن الذي تقتضيه بلاغة القرآن هو أن يكون المراد بـ «مَنْ لا يخلق» الحي القادر من الخَلْق لا الأصنام ، وأن يكون الإنكار موجهًا إلى توهم تشبيه الحي العالِم القادر من الخلق به ـ تعالى وتقدَّس عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ تعريضًا عن أبلغ الإنكار لتشبيه ما ليس بحي عالِم قادر به تعالى ، ويكون قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيه توبيخ على مكان التعريض»[٣].

● فكرة للدرس :

وأقول : إن ما ذهب إليه السكاكي لا ترتاح إليه النفس ، كما أن فكرة التشبيه المقلوب في الآية قد يمكن الاستغناء عنها .

---

(١) انظر : فن التشبيه ـ للأستاذ علي الجندي .

(٢) المواهب الفتحية : ١/١٨٤ .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٨٤ .

لأن المتأمل في المعاني التي تحدثت عنها سورة النحل قبل الآية المذكورة يجد أن تلك المعاني تأتي على الترتيب الآتي :

أن الله خلق الكون أرضًا وسموات ، وخلق الإنسان وخلق الأنعام ، وسخَّر الأنهار والبحار والكواكب لخدمة الإنسان ، وأنزل الماء من السماء لري الأرض وإنبات الزرع والأشجار والثمار ، وأنه تعالى خلق أشياء كثيرة يعلمها الناس ، وخلق غير ذلك مما لا يدخل تحت علمهم في الماضي أو الحال أو الاستقبال.

فالطابع الغالب على هذه المعاني هو الخلق والإيجاد والتسخير[1] ، بعد هذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ .

ولعل المعنى منها : أفمن خلق هذه الأشياء ـ ويخلق ما يشاء ـ وهو حي قادر على كل شيء دلت على ذلك آثاره ـ كمن لا يخلق شيئًا ـ وهو يُخلق ويُصنع وهو أعجز ما يكون أن يفعل شيئًا ؟

ويكون ـ على هذا التقدير ـ وجه الشبه المنفي هو العجز والضعف .. يعني أن القُدرة الفائقة ثابتة لله ، والعجز المُقْعِد ثابت لما سواه أصنامًا وغيرها من المخلوقات .

وعلى هذا ـ والله أعلم ـ لا قلب في التشبيه هنا .

● **البيع ، والربا :**

أما الآية الثانية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ (البقرة:٢٧٥) فقد نزلت في شأن أهل مكة وكانوا يستحلون الربا وبالغوا في حِلِّيته حتى جعلوه أصلاً قاسوا عليه البيع[2] فأمر القلب فيها ظاهر والداعي إليه معلوم .

وهذا التقديم ينبئ عن مغالطة فاحشة ركن إليها مستحلو الربا ، شأنهم في ذلك شأنهم في كل مسائل العقيدة والسلوك والأخلاق .

---

(١) أوائل سورة النحل : ١-١٦ .

(٢) فن التشبيه ـ للأستاذ علي الجندي : ٣٢٩/١ .

قالوا[1] : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ (الجاثية:٢٣) .. وهذا يلزم عليه أمران :

أولهما : كون الآية على أسلوب التشبيه الذي أداته مُقدَّرة .

ثانيهما : أنه من التشبيه المؤكد المجمل لحذف الوجه مع الأداة .

والذي يبدو أن في عَدِّ هذه الآية من باب التشبيه ـ سواء أكانت من التشبيه المعدول أو المقلوب ـ مجافاة للصواب ، لأن الآية تبالغ في شأن من اتبع الهوى ونسي واجبات الخالق ، وليس المعنى أنه ساوى بين واجبات الخالق ، ومغريات الهوى ، إذن فليس له ـ من ظاهر حاله ـ إله غير الهوى .

وقد سبق عن ابن عباس أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا .. والتقدير : « اتخذ هواه إلهه »[2] .

فعدها ـ إذن ـ من التشبيه ليس بمسلَّم .

وعدوا من المقلوب قوله تعالى حكاية عن ابنة عمران : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) .. والأصل : وليس الأنثى كالذكر ، ولعل سر التقديم هنا أن نفسها كانت تمتلئ رغبة في الذكر الذي طلبته .

● **خصائص تشبيهات القرآن :**

أولاً : إن القرآن الكريم قد اشتمل على قدر كبير من التشبيهات ومن التمثيل لا تكاد تخلو منها واحدة من سوره الطوال ، بل قد حفلت قصاره بكثير منه ، وهو يتخذ من الأسلوب التشبيهي والتمثيلي وسيل للبيان والتهذيب ، والتربية والإصلاح والمدح والذم ، والإرشاد والتوجيه .

ثانيًا : إن الغرض الديني هو السمة الظاهرة في جميع تشبيهات القرآن وتمثيله وليس بينها ما يخلو من هذه السمة .

---

(١) فن التشبيه ـ للأستاذ علي الجندي : ٣٢٩/١ .

(٢) انظر ص ٩٣ من هذا البحث : الفصل الثاني من الباب الثالث .

ثالثًا : إن الفائدة في التشبيه القرآني تعود دائمًا على المشبه[1] لأن المشبَّه به أقوى صلة بالصفة المشتركة بين الطرفين ، وهذا هو الغالب فيه .

« ومن غير الغالب أن يتساوى الطرفان في الصفة ، أو يكون المشبه أقوى من المشبَّه به كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور:٣٥)، وليس هناك داع للاحتجاج على مشروعية هذا التشبيه وصحة معناه بأمثلة من الشّعر أو غيره ، لأن المراد الإيضاح والبيان وليس المراد بيان المقدار »[2] .

والتشبيه الإيضاحي لا يُشترط فيه قوة الصفة في المشبه به دون المشبه ، والأولى أن يقاس على القرآن أقوال الشعراء لا أن يقاس هو عليها سواء في ذلك مسائل هذا الفن وغيره من الفنون كالنحو والصرف .

رابعًا : مادة التشبيه والتمثيل القرآني

إن القرآن يتخذ من الطبيعة وظواهرها من سُحب وأمطار ، ورعد وبرق ، وبحور وأنهار ، وزروع وأشجار ، وجبال وصواعق ، وزوابع وأعاصير ، يتخذ من كل ذلك مادة حية في تشبيهاته وتمثيلاته .. كما يتخذ من الحيوانات والآفات التي تصيب الإنسان كالعمى والبُكم والصم ... وما أشبه ذلك ، يتخذ منه كذلك مادة لتشبيهاته وتمثيلاته ، ويتخذ من أحوال الحياة من غير هذه العناصر مادة يُشكِّل فيها التشبيه والتمثيل على نمط فريد ، واتخذ كذلك من المعادن النفيسة مادة لتلك التشبيهات .

كما اتخذ من صفات البَشر من الرق والحرية وما أشبههما مادة لتشبيهاته ، وقد تكون الصورة المشبَّه بها مفروضة غير مدركة كتشبيه الإنفاق الخالص بسنبلة أنبتت سبع سنابل ، وكتشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، وكتشبيه اهتزاز العصا باهتزاز الجان .

---

(١) من بلاغة القرآن ـ الدكتور أحمد أحمد بدوي .

(٢) من بلاغة القرآن ـ الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وكذلك . البيان القرآني ـ الدكتور رجب البيومي .

ولذلك كانت تشبيهات القرآن خالدة حية مستمرة الجدة والطرافة ، والرقة والجزالة ، لأنها مصنوعة من مادة حية متجددة الرواء والنماء .

خامسًا : غناء التشبيه والتمثيل القرآني

إن جملة التشبيه والتمثيل في القرآن غنية بالمعاني الإضافية التي تقوى من المعنى التي من أجله صيغ التشبيه أو التمثيل ولم يُكتَف فيها بمجرد وجود التشبيه بين الطرفين نفيًا أو إثباتًا ، ذمًّا أو مدحًا ، وتقوم فواصل الآي في هذا المجال بنصيب كبير .

ففي تمثيل الإنفاق الخالص بالسنبلة التي أنبتت سبع سنابل تجد وجه الشبه هو الكثرة والنماء ، فجاءت الفاصلة مع قرينتها وافية بهذا المعنى أيما وفاء ، ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١)، وفي تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة جاءت الفاصلة مؤكدة لهذا المعنى : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤) .

كما أكدت فاصلة تشبيه الكلمة الخبيثة المعنى حيث كانت : ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم:٢٦) .

ثم تأمل المقابلة الساحرة بين الموضعين : « أصلها ثابت» مع «اجتثت من فوق الأرضِ» ، و« فرعها في السماء» مع «ما لها من قرار» .

وإيثار لفظ مكان آخر يؤدي هذا الدور أيضًا ، فقد جاء تشبيه الموج بالجبال ، وتشبيه السفن بها كذلك ، ولكنه في جانب تشبيه الموج آثر كلمة : «الجبال» ، وفي جانب تشبيه السفن بها آثر كلمة : «الأعلام» وأصل المعنى واحد .

ولعل السر في هذه التفرقة أن السفن أضخم عادة من الموج والمراد بالجبل مطلق الجنس ، أما الأعلام فلا يراد بها إلا الجبال العظيمة ، فلذلك جاءت كل كلمة في الموضع المناسب لها من حيث الوفاء بحق المعنى في دقة وإحكام .

وقد ينمي القرآن المعنى المراد من التشبيه بزيادات لا تخلو من دلالة مهمة كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ (الكهف:٢٩)، وإلى هنا يكمل المعنى .. ثم يأخذ القرآن بعد ذلك في إضافة زيادات مهمة تزيد المعنى الأصلي قوة وسلطانًا ، فيقول : ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ ، ويقول : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ (الدخان:٤٥،٤٦)، فقد وصف «المهل» بأنه : «يغلي في البطون» .

ثم أخذ «الغلي» المفهوم من الفعل : «يغلي» وأدخله في تشبيه آخر : «كغلي الحميم» فخطا بالمعنى نحو القوة خطوة لها شأنها من حيث المقام ، مقام التهديد والإنذار .. وغير ذلك كثير .

فأنت ترى ـ إذن ـ أن من جملة التشبيه أو التمثيل في القرآن مرنة لها من الحرية أن تدخل من المعاني الإضافية واستبدال لفظ مكان آخر أو أن تأتي في الفاصلة بما يقوي المعنى ويؤكده ، في غير ما سرف ولا فضول .

سادسًا : إن الأداة الغالبة في تشبيهات القرآن هي «الكاف» ثم «كأن» ، وغالبًا ما تدخل الكاف على كلمة «مثل» فتشبه مثلاً بمثل ، وقَلَّ حذف الأداة في تشبيهات القرآن على عكس ما يرى ابن الأثير في المثل السائر .

وقد تدخل «الكاف» على «ما» المصدرية ، وهي هنا تفيد التساوي بين الطرفين كما في قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ (البقرة:١٣).

وقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ (المزمل:١٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ (النساء:١٦٣).

● صورتان فيهما دقة :

وقد يكون المشبه مع «كما» محذوفًا كقوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ (الأنفال:٥) .

فقد قال النسفي : « كما أخرجك ربك» في محل نصب على أنه صفة الفعل المقدَّر ، والتقدير : « قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتًا مثل ثبات إخراج ربك إياك»[1] .

وأورد الزمخشري هذا الرأي بلفظه ومعناه ، ثم أورد رأيًا آخر ، قال : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : « هذه الحال كحال إخراجك ، يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب»[2] .

وتابع العلاَّمة أبو السعود ما ذكره الزمخشري في الوجهين[3] .

ومن هذا يتضح أن « كما» لم تدخل على المشبَّه به ، بل دخلت على ما هو معمول في المعنى للمشبَّه به ، وهو : « لكارهون» .

ومثله في كون الأداة غير داخلة على المشبَّه به ـ وهي : « كما» ، أيضًا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ (الصف:١٤) .

قال الزمخشري : « فإن قلتَ : ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارًا لله بقول عيسى صلوات الله عليه : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟ قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح والمراد : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[4].

● سر آسر :

وهذا التصرف البديع لم يُعرف في غير القرآن ، ولعل السر في إيلاء أداة التشبيه غير المشبه به ـ كما رأينا ـ الإيماء إلى عقد تشبيه بين القولين وهما :

---

(١) تفسير النسفي : ٢/٧٢ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/١٥٤ .

(٣) تفسير أبو السعود : ٢/٣٤٢ .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٤٢٢ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ ، و﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

والوجه : أن كُلاًّ من القولين يجب أن يُطاع ويُمتثل ، أما قول عيسى عليه السلام فقد أجيب ، فعلى الذين آمنوا ـ كذلك ـ أن يجيبوا هذا القول ويمتثلوه .

وقد تدخل «الكاف» على اسم الإشارة ـ وهو كثير جدًّا في القرآن : وهو على كثرته نوعان :

نوع يتضح فيه أمر التشبيه ، مثل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى:٥٢) بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ (الشورى:٥١) .

وهذا النوع ـ أعني وضوح التشبيه معها ـ وهو الغالب في استعمالها في القرآن الكريم .

والنوع الثاني : ألا يكون أمر التشبيه فيها ظاهرًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٤٠) .

لذلك يرى بعض الباحثين[1] : أن يحمل معناها على التوكيد وإن صح معها تقدير التشبيه ، وهذا الرأي لا يخلو من الوجاهة .

هذا .. وقد تتصدر أداة التشبيه في القرآن كلامًا جديدًا يكون مشبَّهًا به ، أما المشبه فغير مذكور صراحة ، بل هو أمر منتزع من كلام سابق وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(آل عمران:١٠،١١).

---

(١) هو الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه : «من بلاغة القرآن» .

قال الزمخشري : « دأب هؤلاء كدأب الذين من قبلهم من آل فرعون وغيرهم »[1] .

ولهذه الآية نظائر هي : آية : ٥٤ من نفس السورة وآيتا : ٥٠ ، ٥١ من الأنفال ، وآية : ٣١ من غافر .

فالمشبه ـ هنا ـ محذوف ، والذي سوَّغ حذفه دلالة المقام عليه ، وفي كل موضع من هذه المواضع التي حُذِفَ فيها المشبه حرص القرآن الكريم على ذِكر أداة التشبيه للإشعار به لأنها لو حُذِفت مع حذف المشبه لكان الحمل على التشبيه بعيد التصور نوعًا .

ولا أظن أن هذا النوع من التشبيه معروف خارج دائرة القرآن ، فهو كذلك سمة من سماته الفريدة .

سابعًا : تجمع تشبيهات القرآن بين أقسام التشبيه الأربعة المعروفة من حيث الطرفان .

ففيه تشبيه المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس وهذا القسم هو الغالب فيه ، كتشبيه الإنفاق الخالص بسنبله أنبتت سبع سنابل ، وكتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة ... وغير ذلك كثير .

● **وهم مدفوع :**

وقد وَهِمَ بعض المعاصرين[2] فقال إن تشبيهات القرآن تقف عند هذين القسمين[3] ، لأن تشبيه المعقول بالمعقول وارد في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (البقرة:١٣) .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٢٦٠ .

(٢) هو الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه : من بلاغة القرآن ص ١٩٤ .

(٣) أي تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمحسوس بالمحسوس .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (النساء:١٦٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج:٤٧).

فلا يشك أحد أن التشبيه في هذه الآيات واقع بين معقول ومعقول ، فكيف ساغ إذن أن يقال إن التشبيهات في القرآن لم تخرج عن ذينك القسمين ؟

ولم تقف تشبيهات القرآن عندما ذكرنا ، بل هو ملىء بأمثلة أخرى .

وفيه ـ كذلك ـ تشبيه المحسوس بالمعقول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ (النمل:١٠) .

وقوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ (الصافات:٦٥).

والآن فهل لقول مَن يرى أن تشبيهات القرآن محصورة بين تشبيه المحسوس بالمحسوس والمعقول بالمحسوس نصيب من الصحة ؟

● **وجه الشبه في تشبيهات القرآن :**

أما وجه الشبه فيأتي مفردًا ومركبًا ، وكل منهما عقلي وحسي ، فما الوجه فيه مفرد عقلي قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ (النساء:١٦٣) . والوجه ثبوت كون الوحيين من عند الله .

وما الوجه فيه مفرد حسي قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (آل عمران:١٣٣). والوجه هو الاتساع والبسطة .

وما الوجه فيه مركب عقلي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ (الجمعة:٥).

وما الوجه فيه مركب حسي قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ (النور: ٤٠) .

وقد جمعت تشبيهات القرآن بين تشبيه المفرد بالمفرد كما في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢) ، وقوله : ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (الرحمن: ١٤) .

والمركب بالمركب كما في قوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت: ٤١) .

وتشبيه المفرد بالمركب كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور: ٣٥).

ولا رابع لهذه الأقسام إذ لم يرد فيه تشبيه المركب بالمفرد .

● **ووهم آخر مدفوع :**

ولستُ مع الأستاذ علي الجندي إذ يرى « أن التشبيه المتعدد لم يرد في القرآن لما فيه من أثر الصنعة والتكلف »[1] .

والواقع أن التشبيه المتعدد وارد في القرآن ، وقد خلا من أثر الصنعة والتكلف وهو على أنواع :

١- التعدد في الوجه والطرفان مفردان ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩).. فقد شبَّه القمر بالعرجون ـ وهما مفردان ـ من ثلاثة وجوه ، هي : الدقة والانحناء والاصفرار[2] .

ومثله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ (القارعة: ٤) .. أي في الكثرة الضعف والتموج .

---

(١) فن التشبيه للأستاذ على الجندى .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري .

٢- وقد يكون المشبه مفردًا ، والمشبَّه به متعددًا كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:٥٨).

ومنه أيضًا ـ أي من المتعدد ـ قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤).. فقد تعدد المشبه به والمشبَّه مفرد .

وبهذا يندفع ما ذهب إليه الأستاذ علي الجندي من نفي التعدد عن تشبيهات القرآن الكريم مع خلوها ـ متعددة ، وغير متعددة ـ من أثر للتكلف والصنعة .

● **مدخول الأداة في التشبيه المركب :**

ثامنًا : أن أداة التشبيه في القرآن الكريم حين تدخل على أحد أجزاء الصورة التشبيهية في التشبيه المركب فإن الجزء الذي تدخل عليه هو أعظم تلك الأجزاء في رسم الصورة ، لذلك أوثر دخولها عليه من بين بقية الأجزاء .

يظهر هذا جليًّا في المواضع الثلاثة التي شبَّه فيها القرآن الدنيا في سرعة فنائها بعد ازدهارها ، فإن الأداة في تلك المواضع الثلاثة لم تدخل إلا على الماء ، والماء ليس مشبَّهًا به بل مجموع الأجزاء مع ملاحظة الصورة المكوَّنة منها هي المشبَّه بها .

وما ذلك إلا لأن الماء هو أهم عنصر من عناصر تلك الصورة التي أريد التشبيه بها ، فليس في بقية الأجزاء جزء ليس للماء مدخل فيه .

وكذلك عندما ضرب الله مثل اليهود في حفظهم للتوراة ، وترك العمل بها ، فإن الأداة دخلت على أحد أجزاء الصورة وهو الحمار ، والحمار في تلك الصورة هو أهم جزء من أجزائها كلها لذلك أوثر الدخول عليه .

وكذلك عندما شبَّه الله أعمال الذين كفروا ، فإن الأداة دخلت على أهم جزء من أجزاء الصورة وهو الرماد .

ولعل هذا الأسلوب للإيمان بأن مدخول الأداة يمكن أن يستقل بأن يكون الطرف المقابل للمشبه في قوته وأهميته في البيان والإيضاح ، ولو حاولتَ

مخالفة ما صنعه القرآن في هذه المواضع وما أشبهها فأدخلت الأداة على جزء آخر لوجدتَ مخالفة بين المعنيين ، وهذا العمل - أي تبديل الجزء المدخول عليه بآخر - قد لا يكون له فرق في المعنى إذا نحن أجريناه خارج دائرة القرآن كبيت بشار مثلاً :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

● **عود للتشبيه المسلوب :**

تاسعًا : ومن خصائص التشبيه القرآني تلك التشبيهات السلبية بما تحتوي عليه هي نفسها من خصائص وذلك حين يقارن القرآن بين أمرين ليس بينهما وجه للمقارنة فينفي القرآن أن يكون بينهما وجه من وجوه الشبه ، ويغلب على هذا النوع دخول الاستفهام الإنكاري ، وقد يؤكد ذلك الإنكار بلفظ مذكور في الفاصلة .

كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

(السجدة:١٨) .

وقد يأتي الإنكار قبيل الفاصلة كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(النحل:٧٥،٧٦) .

وقد يُبدَّل من هذا التشبيه تشبيه آخر منكر فيه تخصيص لعموم إفادة الأول وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(الجاثية:٢١).

ويمكن أن يدمج هذا الملحظ إلى ما أسميناه بغنى جملة التشبيه في القرآن الكريم .

● **نوع فريد من التشبيه في القرآن :**

عاشرًا : وفي التشبيه القرآني نهج فريد لم يُعهد في سواه ذلك أن الناظر في تشبيهات القرآن يرى أداة التشبيه تأتي عقب جمل من الكلام لها معنى قد أدَّته ، فتدخل أداة التشبيه على اسم إشارة مشار به إلى مجموع تلك الجمل باعتبار المعاني التي أدَّتها فيكون اسم الإشارة مشبَّهًا به ملحوظًا فيه معاني تلك الجمل ، ويأتي بعد ذلك المشبه مؤخرًا اسمًا أو فعلاً ، والمعهود أن المشبه رتبته التقديم على المشبَّه به وعلى الأداة ، ومن ذلك قوله تعالى بعد ذكر قصة أصحاب الجنَّة وقد فصَّل القرآن الحديث فيها : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم:٣٣) .

فالمشبه العذاب ـ وهو هنا ـ اسم وقد أُخِّرَ على المشبَّه به والأداة لفظًا لأن رتبته التقديم إذ هو مبتدأ ، و« الكاف» وما دخلت عليه خبره ، والمعنى : « العذاب كذلك » ، ولعل السر في التقديم هنا لأن المشبَّه به لم يستقل بالمعنى لأنه مشار به إلى معاني الجمل التي سبقته ، فقُدِّم لتقدمها .

ومعنى آخر ـ أن البدء بأداة التشبيه هنا واليًا لها المشبَّه به تُشعر باتصال الكلام ، أما لو بدئ بـ « العذاب» لتوهم زوال ذلك الاتصال .

ومنه أيضًا : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ ﴾ (الروم:٢٨) .

والمشبه ـ هنا ـ فعل كما ترى .

كما تأتي أداة التشبيه في بدء كلام فتربط بينه وبين كلام سابق من حيث إنهما متشابهان ـ لتؤذن ـ مع هذا بتفصيل المشبَّه به فيما يستأنف من الكلام ، ومثاله

أيضًا من قصة أصحاب الجنة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (القلم:١٧).

ويتوالى الحديث بعد ذلك في تفصيل قصة أصحاب الجنة التي هي مشبَّه بها .

● **التشبيه والتمثيل أصيلان في أسلوب القرآن :**

حادي عشر : لذلك كانت جملة التشبيه في القرآن تمثل عنصرًا أساسيًّا في إيضاح المعاني وتقريرها ، وليست ثانوية في الأسلوب .

لذلك استخدمها القرآن الكريم في الأغراض الهامة من المدح إلى الذم ، ومن الترغيب إلى الترهيب ، ومن التهذيب والإصلاح إلى التشريع والأحكام إلى الجدل والإفحام إلى آخر مقاصد الكتاب الحكيم .

ثاني عشر : إن الباحث في تشبيهات القرآن يراه محذوف الوجه دائمًا فهي - إذن - من التشبيهات المجملة التي تقتضي التماثل التام بين الطرفين ، وفي هذا نوع من تأكيد الصلة بين ذينك الطرفين .

* * *